

الفصل الثامن

إرهاب الشرق الأوسط
والنظام الأيديولوجي الأمريكي^(*)

(*) كتب هذا الفصل عام ١٩٨٦م

في السابع من أكتوبر عام ١٩٨٥م، التقى الرئيس ريجان في واشنطن مع رئيس الوزراء الإسرائيلي شمعون بيريز الذي أخبره بأن إسرائيل مستعدة لاتخاذ «خطوات مقدماتية» في الشرق الأوسط ومد «يد السلام» إلى الأردن.

وفي صحيفة التايمز علق ديفيد شيلر قائلاً إن «زيارة السيد بيريز تأتي في وقت تشهد فيه العلاقات الأمريكية الإسرائيلية انسجاماً غير عادي»، مستشهداً في ذلك بوصف أحد مسئولى وزارة الخارجية لعلاقات أمريكا بإسرائيل بأنها «حميمة ومتينة على نحو رائع». تم استقبال السيد بيريز بكل حفاوة باعتباره رجل سلام، وقد أشيد بتمسكه الجاد «بتحمل كلفة السلام عن تحمل ثمن الحرب». وصرح الرئيس بأنه والسيد بيريز قد ناقشا «شر الإرهاب» الذي أودى بحياة كثير من الضحايا الإسرائيليين والأمريكيين والعرب، وجلب مأساة على الكثير من الآخرين، وأردف قائلاً «لقد اتفقنا على ألا يوهن الإرهاب من جهودنا لتحقيق السلام في الشرق الأوسط».

قد يستلزم الأمر قرائح روائية مثل جوناثان سويفت لوصف هذا الحوار الدائريين اثنين من أبرز القادة الإرهابيين في العالم. ويستبعد مفهوم «السلام» عندهما، إحدى الجماعتين اللتين تدعى كل منهما الحق في تقرير المصير في فلسطين القديمة، وهي جماعة السكان الأصليين. فقد صرح بيريز في زيارة له إلى المستوطنات الإسرائيلية في عام ١٩٨٥م أن وادي الأردن «جزء لا يتجزأ من دولة إسرائيل» بموقف ثابت لا يحد عنه لأن «الماضي لا يمكن تغييره، والتواراة هي الوثيقة الحاسمة في تقرير مصير أرضنا»، وصرح كذلك بأن وجود دولة فلسطينية «يهدد الوجود الفعلي لإسرائيل». فمفهومه للدولة اليهودية - الذي أشيد به كثيراً في الولايات المتحدة لاعتداله - لا يمثل تهديداً فحسب، بل إنه يلغى الوجود للشعب الفلسطيني. غير أن هذه النتيجة اعتبرت قليلة الأهمية، وفي أسوأ الأحوال شائبة ثانوية في عالم غير مثالي.

لم يتقدم بيريز أو أي قائد إسرائيلي آخر خطوة واحدة إلى الآن منذ الموقف الذي

اتخذته الرئيس الإسرائيلي الحالى حاييم هيرتزوج فى عام ١٩٧٢م؛ ذلك أن الفلسطينيين لا يمكن مطلقاً أن يصبحوا «شركاء بأى شكل فى أرض قدسها شعبنا لألاف السنين»، وبرغم ذلك تفضل الحمايم استبعاد مناطق الضفة الغربية التى تعج بالسكان العرب من الدولة اليهودية لتجنب ما اصطلحوا على تسميته بتعبير لطيف «المشكلة الديموجرافية». واستمر الجميع فى الاقتناع برأى شلومو جازيت؛ ذلك أن سياسات «القضاء على كافة مبادرات» العمل السياسى أو الديمقراطى أو المفاوضات كانت «قصة نجاح»، ويجب الاستمرار فيها. وظل موقف إسرائيل، مع التأييد الأمريكى له، كموقف رئيس الوزراء (وزير الدفاع الحالى) إسحاق رابين. ففى يناير عام ١٩٧٦م عندما أيدت منظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية مشروع قرار لمجلس الأمن يدعو إلى تسوية سلمية لإقامة دولتين، رفضت إسرائيل إجراء أى مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية حتى وإن اعترفت المنظمة بإسرائيل ونبذت الإرهاب، وأعلنت أنها لن تدخل فى «مفاوضات سياسية مع الفلسطينيين» أو منظمة التحرير الفلسطينية. ولم يكن لدى بيريز أو ريجان مجرد الرغبة فى النظر فى المقترحات الواضحة التى قدمتها منظمة التحرير الفلسطينية- التى يعرف كلاهما بأنها تلقى تأييداً واسعاً بين الفلسطينيين- ومشروعية كمشروعية المنظمة الصهيونية فى عام ١٩٤٧م- لمفاوضات تفضى إلى اعتراف مشترك نحو تسوية لإقامة دولتين بما يتفق مع الإجماع الدولى الواسع الذى أعاقته الولايات المتحدة وإسرائيل لسنوات كثيرة عند كل منعطف.

تقدم هذه الحقائق السياسية المهمة، الإطار اللازم لأى مناقشة تخص «الإرهاب» الذى يشير، فى المصطلحات العنصرية للخطاب الأمريكى، إلى الأعمال الإرهابية التى قام بها العرب، دون أن يشير إلى تلك التى قام بها اليهود، مثلما يعنى «السلام» تسوية تحترم الحق فى تقرير المصير الوطنى لليهود دونما الفلسطينيين.

قدم بيريز إلى واشنطن ليتناقش حول موضوعات السلام والإرهاب مع شريكه فى الجريمة فور إرساله قاذفاته لمهاجمة تونس حيث قتلت عشرين تونسياً وخمسة وخمسين فلسطينياً، كما أفاد الصحفى الإسرائيلى أمنون كاييلوك من مسرح الأحداث. فالهدف لم يكن له دفاعات فقد كان عبارة عن «متجمع يضم عدة عشرات من المنازل والأكواخ لقضاء العطلات، تجاورها مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية التى كانت تتداخل معها بحيث يصعب من مكان قريب تمييزها من بينها». واستخدمت أسلحة كانت أكثر تطوراً

من تلك التي استخدمت في بيروت، وعلى ما يبدو فقد كانت «القنابل الذكية»، التي سحقت أهدافها وحولتها إلى رماد.

مزق القصف من كان بداخل المنازل إلى أشلاء. وقد عرضوا على مجموعة من صور القتلى وقالوا لي: «يمكنك أن تأخذها» لكنني تركتها في المكتب، فلا يوجد صحيفة في العالم يمكنها أن تشر صور إرهاب مثل تلك الصور. وأخبرت بأن صبيًا تونسيًا كان يبيع الساندوتشات بالقرب من المكاتب الإدارية قد مُزق إربًا. وتعرف والده على الجثة من خلال ندبة في كاحله. وأخبرني مرشدي بأن «بعض الجرحى الذين أخرجوا من تحت الأنقاض وكانوا على ما يبدو معافين وسالمين»، ما لبثوا أن انهاروا صحياً بعد نصف ساعة جراء الكسور التي لحقت بهم ولقوا حتفهم. فعلى ما يبدو أن أعضاءهم الداخلية قد تعرضت لتلف شديد نجم عن قوة الانفجار.

وافقت تونس على استقبال الفلسطينيين بأمر من ريجان بعد أن رُحّلوا من بيروت جراء عملية اجتياح مدعومة من الولايات المتحدة أسفرت عن ٢٠,٠٠٠ قتيل وتدمير جزء كبير من الدولة. وقد قام «أحد الشخصيات القيادية بالبتاجون، وهو لواء مطلع على الجيش الإسرائيلي (قوات الدفاع الإسرائيلي) والجيش الكثيرة الأخرى بالمنطقة» بإخبار المراسل العسكري الإسرائيلي زائيف تشيف قائلاً «لقد استخدمتم مطرقة ضد ذبابة» «وقتلتم الكثير من المدنيين دون داع. لقد صُعدنا من موقفكم تجاه المدنيين اللبنانيين». وهو شعور تقاسمه جنود إسرائيليون ومستولون كبار ممن فزعوا من وحشية الهجوم ومعاملة المدنيين والأسرى - ويرغم ذلك ازداد التأييد داخل إسرائيل للعدوان ولفريق بيجن وشارون في تواز مع الأعمال الوحشية التي بلغت أعلى ذروة لها عقب القصف العنيف الذي تعرضت إليه بيروت في أغسطس. التزم شمعون بيريز، رجل السلام والشخصية المبجلة في الاشتراكية الدولية، الصمت إلى أن بدأت خسارة إسرائيل في الصعود مع وقوع مذبحتي صبرا وشتيلا عقب انتهاء الحرب، ثم الخسارة التي سببتها المقاومة اللبنانية التي قوضت خطة إسرائيل لوضع «نظام جديد» في لبنان، يجعل لإسرائيل السيطرة على مناطق كبيرة في الجنوب، والبقية تسيطر عليها كتائب حلفاء إسرائيل، والنخب المختارة من المسلمين.

ليس هناك شك، يستنتج كاييلوك، أن عرفات كان الهدف من وراء الهجوم على تونس. وفي مقر منظمة التحرير الفلسطينية إلى حيث اقتيد، يظهر عرفات في صورة له واقفاً وسط الحطام يقول: «لقد أرادوا قتلي بدلاً من التفاوض معي».

وأخبر كاييلوك بأن «منظمة التحرير الفلسطينية ترغب في إجراء مفاوضات» «غير أن إسرائيل ترفض إجراء أى مناقشة» - تقرير حقيقة واضح أعتم عليه بقوة في الولايات المتحدة، أو رفض النظر فيه بوصفه غير ملائم، طبقاً للنظام المرشد العنصرى .

ليس هناك أيضاً محض شك في تواطؤ الولايات المتحدة في الهجوم على تونس، بل إن الولايات المتحدة لم تحذر الضحايا - حلفاء أمريكا - بأن القتلة قد انطلقوا في طريقهم . ويجب على المرء الذى يصدق الادعاء بأن الأسطول السادس ومنظومة المراقبة الشاملة في المنطقة، كانوا عاجزين عن رصد الطائرات الإسرائيلية، التى أعيد تزويدها بالوقود خلال طيرانها فوق البحر المتوسط، أن يدعو الكونجرس إلى إجراء تحقيق عن العجز المطلق للجيش الأمريكى الذى يتركنا وحلفاءنا عرضة لهجوم الأعداء . وذكرت صحيفة لوس أنجيلوس تايمز أن «التقارير الإخبارية تنقل حالياً عن مصادر حكومية تقول بأن الأسطول السادس الأمريكى كان بدون شك على دراية بالغارة الآتية، غير أنه قرر عدم إخبار المسئولين التونسيين» . وقد ذكر مراسل صحيفة إيكونومست اللندنية فى الشرق الأوسط جود فرى جانسن، أن «ذلك التقرير الخطير جداً لم يرد فى أكبر صحيفتين فى الساحل الشرقى، صحيفة نيويورك تايمز وصحيفة واشنطن بوست، ولا فى الصحف الأمريكية الأخرى، ولم يستخدم فى خدمات ما وراء البحار» لوكالة أسوشيتدپرس والصحافة الدولية المتحدة . وأضاف قائلاً بأن «التواطؤ السلبي للولايات المتحدة كان مؤكداً بدون شك» .

محمد المغربى، أحد ضحايا قصف تونس، ولد فى القدس عام ١٩٦٠م، واحتجز اثنتى عشرة مرة فى سجن السادسة عشرة، وبعد واحداً من الذين أدلوا بمعلومات لصحيفة صنداى تايمز اللندنية خلال التحقيق الذى أجرته حول عمليات التعذيب فى إسرائيل (١٩ يونيو ١٩٧٧م) والذى «تمكن من الفرار إلى الأردن بعد سنوات من تفاقم سوء معيشتته تحت التدهور المستمر فى الأحوال نتيجة للاحتلال العسكرى» . طبقاً لما ورد فى تعليق تذكارى كتبه له أصدقاء إسرائيليون يهود منعت الرقابة العسكرية الإسرائيلية - عدة مرات - من نشره فى الصحف العربية بالقدس الشرقية . وهذه الحقائق، بالطبع، قد تكون بلا معنى فى الولايات المتحدة؛ إذ أن الدراسة الدقيقة الاستثنائية التى أجرتها صحيفة صنداى تايمز قد أقصيت تماماً فى الصحافة، وبرغم ذلك فقد أشير إليها فى صحيفة نيوريبابليك الليبرالية، رافقها دفاع صريح عن عمليات تعذيب العرب، تلك العمليات التى لم تفرز أى رد فعل عام .

أيدت الولايات المتحدة القصف الإسرائيلي لتونس باعتباره «رد فعل مشروع» على «هجمات إرهابية»، وقد أكد وزير الخارجية شولتز على هذا الرأي خلال مكالمة هاتفية أجراها مع وزير الخارجية الإسرائيلي إسحاق شامير، مخبراً إياه بأن الرئيس وآخرين يشعرون بتعاطف كبير مع العمل الإسرائيلي». تراجعت واشنطن عن هذا التأييد الواسع إثر رد فعل عالمي مناور، غير أنها امتنعت عن التصويت على إدانة مجلس الأمن لهذا «العمل العدواني المسلح» في «انتهاك سافر لميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي ومعايير السلوك» - بمفردها كالمعتاد.

يتبين المناخ الفكري والثقافي في الولايات المتحدة، بالإدانة المرة للامتناع عن التصويت بوصفه حالة أخرى للموقف «الموالي لمنظمة التحرير الفلسطينية» و«المعادى لإسرائيل» ورفض الضرب بقوة على - من تم انتقاؤهم بعناية من - الإرهابيين.

قد يجادل المرء في أن القصف الإسرائيلي لا يقع تحت مسمى الإرهاب الدولي، لأنه يقع تحت مسمى جريمة العدوان الأكثر خطورة، كما أقر مجلس الأمن. أو قد يرى المرء أنه ليس من الإنصاف أن نطبق على إسرائيل تعريف «الإرهاب الدولي» الذي وضعه آخرون. وللدرد على المأخذ الثاني ربما يجب علينا دراسة عقيدته كما صاغها السفير بنيامين نتيناهو في أحد المؤتمرات الدولية المعنية بالإرهاب. فقد أوضح أن العامل الفارق في الإرهاب هو «القتل المتعمد والمنهجي وتشويه [المدنيين] بقصد إثارة الخوف». بوضوح، يقع الهجوم على تونس والأعمال الوحشية الإسرائيلية الأخرى التي استمرت لسنوات تحت هذا المفهوم.

يأتى الهجوم على مقر منظمة التحرير الفلسطينية التي يرأسها عرفات بدعوى الثأر لمقتل ثلاثة إسرائيليين في لارناكا بقبرص على يد معتدين قبض عليهم وواجهوا محاكمة لجريمتهم. ويشكك «خبراء ديبلوماسيون غربيون معنيون بمنظمة التحرير الفلسطينية» في أن عرفات كان على علم بالمهمة المدبرة. «وأدلى الإسرائيليون أيضاً برأيهم المتأصل، ذلك أن عرفات كان متورطاً». وفي الولايات المتحدة لم يتأثر المدافعون عن إرهاب إسرائيل ممن أكدوا لنا أن «الغارة التي شنتها إسرائيل على تونس استهدفت بدقة الأشخاص المسؤولين عن الأنشطة الإرهابية»، موضحين أنه مهما كانت الحقائق فإن «المسؤولية الأخلاقية الكبرى عن الأعمال الوحشية... تقع جميعها على كاهل عرفات»، حيث «إنه كان ولا يزال الأب المؤسس للعنف الفلسطيني المعاصر».

وفي خطاب له أمام جماعة اللوبي الإسرائيلي «أيباك - AIPAC»، صرح المدعى العام إيدوين ميس بأن الولايات المتحدة تحمل عرفات بشكل عام «المسئولية عن أعمال الإرهاب الدولي»، حقائق تبدو غير مقبولة. من ثم فإن أي عمل «ضد منظمة التحرير الفلسطينية» - وهي فئة عريضة جداً، كما يؤكد سجل التاريخ - يعد عملاً مشروعاً.

يتوافق الهجوم على تونس مع الممارسة الإسرائيلية منذ النشأة الأولى للدولة، فالتأثر يوجه ضد العزل ولا يوجه إلى مدبري الأعمال الوحشية. وتتلور الإدانة القياسية الموجهة إلى منظمة التحرير الفلسطينية في أن الفلسطينيين «بدلاً من أن يوجهوا الهجوم إلى الأعداء المحصنين كإسرائيل على سبيل المثال، قاموا بهجوم أهداف إسرائيلية لينة في إيطاليا والنمسا وأماكن أخرى»، وتلك علامة أخرى على طبيعتهم الوضيعة والجبانة. تلمصت الممارسة الإسرائيلية المماثلة، التي بدأت منذ فترة طويلة، وتتعدى تلك الفلسطينية في الدرجة كثيراً، من مثل هذا التعليق وسط الإطراء العام على البطولة والكفاءة العسكرية، و«ظاهرة سلاح» حليفة أمريكا المفضلة. ويطرح مفهوم «الثأر» كذلك أكثر من عدة أسئلة وهو الموضوع الذي سنخرج عليه مباشرة.

بينما أشرف عام ١٩٨٥م على نهايته، استعرضت الصحافة سجل «عام من الإرهاب الدولي الدموي» شمل جرائم القتل التي وقعت في لارناكا في الخامس والعشرين من سبتمبر، واختطاف أخيلي لورو، والقتل الوحشي لسائح أمريكي معاق يدعى ليون كلينجهوفر، في السابع من أكتوبر. لم يُدرج في القائمة الهجوم الذي شنته إسرائيل على تونس في الأول من أكتوبر. وفي استعراضها المطول لنهاية العام وكان موضوعه الإرهاب، أشارت صحيفة تايمز بإيجاز إلى قصف تونس، غير أنها أشارت إليه بوصفه مثلاً للثأر وليس بوصفه مثلاً للإرهاب، واصفة القصف بأنه «عمل يائس ترك أثراً ضعيفاً في العنف الفلسطيني وأثار احتجاج أم أخرى». وفي إدانته لإيطاليا لتواطؤها في الإرهاب الدولي وذلك بإطلاق سراح الرجل «الذي يُزعم بأنه العقل المدبر لعملية اختطاف [أخيلي لورو]» يرى ألان ديرشوينز، أستاذ قانون بجامعة هارفارد، أن الولايات المتحدة «كانت مؤكداً ستقوم بتسليم أي إرهابي إسرائيلي كان قد قام بأعمال عنف ضد مواطني دولة أخرى» - كما مثال آرئيل شارون أو إسحاق شامير أو مناحم بييجن. وقد ظهر هذا التقرير في نفس اليوم الذي تم فيه تكريم بيريز في واشنطن عقب قصف تونس، والإشادة به لتمسكه بالسلام، وفي المناخ الثقافي السائد، اعتبر ذلك طبيعياً تماماً.

نُقلت تصريحات ريجان المعنية بالإرهاب ونوقشت بجديّة واضحة داخل التيار الرئيسي، غير أن النقاد العرضيين قد علقوا على نفاق أولئك الذين يستكرون الإرهاب الدولي في الوقت الذي يرسلون فيه جيوشهم العميلة للقيام بأعمال قتل وتشويه وتعذيب وتخريب في نيكاراغوا - قلما ذكر ذلك بشكل عام، حيث اعتبرت تلك الأعمال نجاحاً كبيراً - وذبح عشرات الآلاف في السلفادور في محاولة مقصودة لتفادي التهديد المروع لقيام ديمقراطية ذات معنى هناك. وعقب محادثات ريجان - بيريز حول السلام والإرهاب، أفادت مجموعة قوامها ١٢٠ طبيب ومرضعة وعدد آخر من العاملين في الصحة بعد عودتها من مهمة لاستقصاء الحقائق في نيكاراغوا - أجازت من قبل اتحاد الصحة العامة الأمريكي ومنظمة الصحة العالمية - أفادت عن الدمار الذي لحق بالمستوطنات والمستشفيات وقتل العاملين بالصحة ونهب الصيدليات الريفية الذي أدى إلى حدوث نقص حاد في الدواء، وتعطل البرنامج الناجح للتطعيم ضد شلل الأطفال، ويمثل كل ذلك جزءاً واحداً بسيطاً من حملة العنف التي نظمت في مراكز الإرهاب الدولي في واشنطن وميامي. ويتمثل كثيراً مراسلو صحيفة تايمز مع نظرائهم مراسلي صحيفة براثدا في أفغانستان، وذلك في حماسهم للكشف عن أو إثبات دليل قوي على الأعمال الوحشية التي تقوم بها الكونترا. وهذا التقرير مثله مثل الكثير من التقارير الأخرى، لم يحفل به في سجل الصحافة.

تقدم غارة تونس مقياساً للنفاق الذي لا يسهل إدراكه مطلقاً. لنفترض أن نيكاراغوا كانت تقوم بتنفيذ أعمال قصف لواشنطن تستهدف ريجان وشولتز والإرهابيين الدوليين الآخرين. وقتل ١٠٠,٠٠٠ شخص «خطأ». من الممكن أن تبرر المعايير الأمريكية ذلك بأنه ثار، إذا ما قبلت نسبة ٢٥ ضحية مقابل ضحية واحدة، كما حدث في مقايضة لارناكا - تونس.

وبرغم ذلك قد نضيف من أجل الدقة، أنه في هذه الحالة على الأقل، سوف يصبح المدبرون مستهدفين، ولن يكون هناك جدل حول الجهة التي بادرت بالإرهاب، وربما يستوجب مضاعفة العدد الفعلي للقتلى لعامل يتعلق بالأعداد النسبية للسكان. فقد صرح الرئيس ريجان بأن «الإرهابيين ومن يدعمهم يجب أن، وسوف، يتحملوا المسؤولية». وبذلك يقدم الأسس الأخلاقية لأعمال الثار، مع تأييد كامل من أشد النقاد هجاء داخل صحافة التيار الرئيسي، كما رأينا من قبل.

ميز بيريز نفسه بالفعل كرجل سلام فى لبنان . وعقب أن أصبح رئيساً للوزراء ، ازدادت حدة برامج إسرائيل الخاصة «بمقاومة الإرهاب» ضد المدنيين فى جنوب لبنان المحتل وبلغت ذروة وحشيتها مع عمليات القبض الحديديّة فى أوائل عام ١٩٨٥م ، تلك العمليات التى علق كيرتس ويلكى عليها قائلاً بأن هذه العمليات لها «سمات عمليات فرق الموت فى أمريكا اللاتينية» ، مؤكداً على تقارير المراسلين الآخرين من مسرح الأحداث . ففى قرية «زراريا» ، على سبيل المثال ، قامت قوات الدفاع الإسرائيلى بتنفيذ عملية شمالي خط مواجهتها فى ذلك الوقت . وعقب عدة ساعات من أعمال القصف الثقيل لزراريا . وثلاث قرى مجاورة لها ، قامت قوات الدفاع الإسرائيلى بأسر جميع المذكور من سكان القرية وقتلت من ٣٥ إلى ٤٠ منهم . وتعرض قرويون آخرون إلى الضرب أو القتل ، وأطلقت قذيفة دبابة على العاملين بالصليب الأحمر الذين حذروا ليقفوا بعيداً . وعقب ذلك فرت القوات الإسرائيلىة بأعجوبة دون أن يسقط منها ضحايا فى الأرواح ، كما جاء فى الوصف الإسرائيلى الرسمى ، عن معركة مدفعية مع عصابات مسلحة بأسلحة ثقيلة . وقبل ذلك بيوم ، قُتل اثنا عشر جندياً إسرائيلىاً فى هجوم انتحارى وقع بالقرب من الحدود ، غير أن إسرائيل أنكرت أن يكون الهجوم على زراريا تاراً لذلك الهجوم الانتحارى . وفى شعور منهم بالواجب ، قدم المعلقون فى الولايات المتحدة الإنكار الإسرائيلى بوصفه حقيقياً وأوضحوا أن «المخابرات قد توصلت إلى أن البلدة قد أصبحت معقلاً للإرهابيين . . . وأن ما لا يقل عن ٣٤ عضواً فى عصابات الشيعة قد قتل فى معركة المدفعية ، وأن أكثر من مائة رجل قد اقتيد للتحقيق معه - من قرية واحدة صغيرة» (إيريك بريندل) ، مما يشير إلى مستوى شبكة إرهاب الشيعة . ودون إدراك منهم لمنهج الحزب ، قام جنود إسرائيليون بكتابة شعار باللغة العربية على جدران البلدة يقولون فيه «انتقام قوات الدفاع الإسرائيلى» ، كان مراسلو الميدان قد لاحظوا وجوده .

وفى أماكن أخرى ، أطلقت المدافع الإسرائيلىة نيرانها على المستشفيات والمدارس واقتادوا «مشتبهاً فيهم» اشتملوا على مرضى كانوا على أسرة المستشفيات وفى غرف العمليات ، إلى إجراء «استجواب» معهم أو إلى معسكرات الاعتقال الإسرائيلىة ، هذا من بين العديد من الأعمال الوحشية التى وصفها أحد الديبلوماسيين الغربيين بمن يسافرون كثيراً إلى المنطقة ، بأنها أعمال بلغت مستويات جديدة من «الوحشية المدروسة والقتل العشوائى» .

صرح اللواء شلومو إيليا، رئيس وحدة ارتباط قوات الدفاع الإسرائيلي داخل لبنان قائلاً «إن السلاح الوحيد ضد الإرهاب هو الإرهاب، وأن إسرائيل لديها خيارات أخرى تفوق تلك المستخدمة بالفعل، للتحدث باللغة التي يفهمها الإرهابيون» فهذا المفهوم ليس بالجديد، فعمليات الجستابو في أوروبا المحتلة، كانت مبررة باسم محاربة «الإرهاب»، وقد عثر على إحدى ضحايا كلاوس باربي مقتولاً ومعلقاً على صدره رسالة تقول: «الإرهاب مقابل الإرهاب» - وتصادف أن تبنت الجماعة الإرهابية البطاقة، وكذلك عنوان تغطية صحيفة ديرشبيجل لقصة القصف الإرهابي الذي قامت به الولايات المتحدة ضد ليبيا في أبريل عام ١٩٧٦ م. واعترضت الولايات المتحدة على مشروع قرار لمجلس الأمن يدعو إلى إدانة «الممارسات والتدابير الإسرائيلية التي اتخذت ضد المدنيين في جنوب لبنان»، على أساس أن المشروع «يطبق معيارية مزدوجة»، فقد أوضحت جين كيركباتريك قائلة: «نحن لا نعتقد في أن قراراً غير متوازن سوف ينهي الصراع في لبنان».

استمرت العمليات الإرهابية لإسرائيل إلى أن أجبرت المقاومة قواتها على الانسحاب. وقد وضعت القوات الإسرائيلية والمرتزة من جيش لبنان الجنوبي نهاية «لعام من الإزهاج الدولي الدموي» في ٣١ ديسمبر عام ١٩٨٥ م، حيث قاموا «باقتحام قرية لمسلمين شيعة [قرية كونين] وأجبروا كامل مواطنيها الذين بلغ عددهم حوالي الألفين على مغادرتها». نسفوا المنازل وأضرموا النار في عدد آخر منها، وورد في تقرير أن حوالي ٣٢ من الشباب والكبار والنساء والأطفال من مواطني القرية قد دفعوا من القرية إلى مدينة خارج «الحزام الأمني» الإسرائيلي، حيث يوجد مركز قيادة لقوات الأمم المتحدة.

من بيروت، أرسل هذا التقرير الذي بنى على ما أدلى به شهود عيان استعان بهم الشرطة اللبنانية وصحفي من جريدة النهار المحافظة وحركة أمل الشيعية. ومن القدس قدم جرينبرج رواية مختلفة. لم تبني على مصادر محددة، بل كحقيقة بسيطة «لاذ القرويون المذعورون من جيش لبنان الجنوبي بالفرار من قرية «كونين» الشيعية عقب مقتل اثنين من جنود جيش لبنان الجنوبي داخل القرية».

هذه المقارنة، التي تعد غمطية، هي من النوع التثقيفي. استفادت الدعاية الإسرائيلية كثيراً من حقيقة أن وسائل الإعلام تعتمد بشكل كبير على مراسلين من داخل إسرائيل.

ويمنح ذلك ميزتين مهمتين: الأولى: أن «الأخبار» تقدم إلى الجمهور الأمريكي من خلال الرؤية الإسرائيلية الرسمية، والثانية: أن المراسلين الأمريكيين عندما يقومون، في المناسبات النادرة، بإجراء تحقيق مستقل، فبدلاً من أن يعتمدوا ببساطة على مستضيفيهم المتعاونين، اعتمدوا على نظام الدعاية الإسرائيلية ومؤسساتها المتعددة في الولايات المتحدة التي تتذمر بشدة من تجاهل جرائم العرب، في الوقت الذي تخضع فيه إسرائيل إلى تفحص دقيق عن أى هفوة صغرى.

العجز في إدارة الأخبار بالطريقة المعتادة يخلق مشاكل في بعض الأحيان. فعلى سبيل المثال، خلال حرب لبنان عام ١٩٨٢م، عندما لم تتمكن إسرائيل من السيطرة على تقارير شهود العيان التي يقدمها صحفيون من لبنان، أثار ذلك صرخة احتجاج مؤثرة في الاعتراض على تجارة وتلفيق الأعمال الوحشية المزعومة في «حرب نفسية كبيرة» شنت ضد إسرائيل الضعيفة المثيرة للشفقة، وعلامة أخرى على تأصل عداة الرأي العالمى للسامية، وبذلك أصبحت إسرائيل الضحية وليست المعتدية. وقد ثبت بلا جدال أن الاتهامات كاذبة وكثيراً ما كانت محض هزل وأن وسائل الإعلام قد بذلت أقصى جهد. كما كان متوقعاً منها. لترى الأمور من وجهة النظر الإسرائيلية، فهو أمر ليس يسيراً على الصحفيين الذي يحاولون الدفاع عن القصف الإرهابى الإسرائيلى. وكثيراً ما كانت شهادة المصادر الإسرائيلية أكثر وعورة عما ورد في صحافة الولايات المتحدة، وما ظهر في الصحف الأمريكية كان غالباً رواية معالجة بشكل كبير للرؤية الحقيقية للصحفيين. بيد أن الاتهامات قد أخذت على محمل جاد برغم هزليتها الواضحة، بينما لم يحفل بالنقد الدقيق الموجه لوسائل الإعلام لخضوعها لوجهة النظر الأمريكية الإسرائيلية وطمسها للحقائق التي لا يمكن قبولها. وعلى نحو تقليدى، تحتوى دراسة أجريت حول «التحليل التي نشرت لتغطية وسائل الإعلام لحرب ١٩٨٢م في لبنان» على كثير من الشجب للصحافة لموقف العداة المزعوم لإسرائيل وعلى بعض الدفاع لوسائل الإعلام ضد هذه الاتهامات. غير أنه لم ترد مجرد إشارة واحدة إلى حقيقة وجود تحاليل نقدية شاملة ودقيقة جداً للظاهرة النقيضة. وداخل القيود المحكمة للمناخ الفكرى والأيدىولوجى الأمريكى، يُستمع فقط إلى ذلك النوع الأول من النقد، وهذه ظاهرة تقليدية ثبتت بوضوح فى مسألة حروب الهند الصينية وحروب أمريكا الوسطى. . إلخ، وتخدم أيضاً كوسيلة أخرى من وسائل السيطرة على الفكر.

لعمليات القبضة الحديدية التي تسعد القيادة الإسرائيلية بأن تصفها «إرهاباً» (راجع تعليقات اللواء إيليا، المذكورة آنفاً) هدفان رئيسيان: أولهما: يعلق جون كفنر (من لبنان). «استعداد الشعب على العصابات بجعل ثمن مساندها غالباً جذاً»، ويواجه، يؤخذ الشعب رهينة لهجوم إرهابي ما لم يقبل الترتيبات التي تعتمز إسرائيل فرضها بالقوة. والهدف الثانى هو مفاجمة الصراعات الداخلية فى لبنان وتحقيق إيدال سكانى عام إثر حرب أهلية يبدو أن المحتل حرض عليها كثيراً بالطريقة التقليدية منذ عام ١٩٨٢م. ويرى جيم سوير، المراسل من لبنان أن «هناك دليلاً قوياً»، ذلك أن الإسرائيليين قد ساعدوا فى إشعال وتشجيع الصراع المسيحى الدرزى فى منطقة الشوف. وفى الجنوب صرح أحد المسئولين الكبار فى المعونة الدولية أن «شعبة الألاعيب القذرة عندهم بذلك كل ما فى وسعها كى تثير الاضطراب، غير أنها لم تنجح». و«أسلوبهم كان كريهاً» وهى وجهة نظر تقاسمها فريق الإغاثة الدولية بأسره. و«أفاد شهود عيان محليون أن جنوداً إسرائيليين كانوا عادة ما يطلقون النار على المخيمات الفلسطينية من مكان قريب من المناطق المسيحية فى محاولة لإثارة الفلسطينيين ضد المسيحيين»، وأفاد مقيمون فى قرى المسيحيين أن جنود الدوريات الإسرائيلية كانوا يجبرون المسيحيين والمسلمين على ضرب بعضهم الآخر تحت تهديد السلاح فى شكل آخر من أشكال «الإذلال الشاذ»، وقد نجحت الأساليب فى نهاية الأمر. فقد قامت الجماعات المسيحية الموالية لإسرائيل بمهاجمة المسلمين بالقرب من صيدا بطريقة تضمن إثارة رد فعل من القوى الأكبر، لتفجر بذلك دائرة من العنف الدموى، أدى فى نهاية الأمر إلى فرار عشرات الآلاف من المسيحيين، فر كثير منهم إلى المناطق التى تسيطر عليها إسرائيل فى الجنوب، بينما دفعت عمليات القبضة الحديدية التى قادها بيريز عشرات الآلاف من الشيعة إلى الشمال.

وأصبح الادعاء فى الولايات المتحدة هو أن إسرائيل كانت دائماً تخطط للانسحاب، غير أن الإرهابيين الشيعة كانوا منغمسين فيما هو معتاد من تلذذ عربى بالعنف من أجل العنف مما أرجأ خطة الانسحاب. غير أن الحقيقة كما يراها جيم موير بشكل صحيح «إنها حقيقة تاريخية مؤكدة ذلك أن الإسرائيليين ما كانوا لينسحبوا فى ذلك الوقت». وأن مدى الانسحاب سوف تحدده شدة المقاومة.

أوضحت القيادة العليا الإسرائيلية أن ضحايا عمليات القبضة الحديدية كانوا «قرويين إرهابيين»، من ثم فقد تبين من هذا التعليق مقتل ثلاثة عشر قروياً، وقد لاحظ

يوسى أولمرت من معهد شيلوه، معهد إسرائيل للدراسات الاستراتيجية، أن «هؤلاء الإرهابيين يقومون بعملياتهم بدعم من معظم السكان المحليين». وتذمر أحد القادة الإسرائيليين قائلاً بأن «الإرهابي.. له كثير من العيون هنا نظراً لأنه يعيش هنا»، بينما قدم المراسل العسكري لصحيفة جورساليم بوست وصفاً للمشاكل التي يجابهونها في محاربة «المرتزقة الإرهابيين» أنهم «متعصبون، جميعهم متفان تماماً لنصرة قضيتهم إلى حد أنهم يعرضون أنفسهم لخطر القتل خلال عملياتهم ضد قوات الدفاع الإسرائيلي»، التي يجب أن «تحافظ على النظام والأمن» في جنوب لبنان المحتل برغم «الثلث الذي سيضطر السكان إلى دفعه» وعبر عن «إعجابه بالطريقة التي تنجز بها القوات الإسرائيلية [عملها]».

أوضح ليون وزيلتر الفارق بين «الإرهاب الشيعي» ضد الجيش المحتل والإرهاب الفلسطيني. وكلاهما ينم عن الطبيعة العربية البغيضة، لدى الفلسطينيين قتلة يرغبون في القتل، والشيعية لديهم قتلة يرغبون في الموت «ويدبرون أعمالاً» موحاة من حاجة العالم لمنقذ إلهي (المهدي المنتظر أو المسيح) ولن تجدى أى محاولات سياسية أو دبلوماسية. (مع أنه ليس هناك أبسط من طرد الجيش المحتل من أرضهم). بل إن «جيشهم السري» حركة أمل قد «نذرت نفسها» إلى «القضاء على إسرائيل»، منذ أن نشأت الحركة في عام ١٩٧٥م - اكتشاف يتعدى الروايات التي حيكت عن هاسبارا في إسرائيل.

استخدم المسئولون والمعلقون الأمريكيون نفس مفهوم الإرهاب على نطاق واسع، هكذا تروى الصحافة، دون تعليق، أن قلق وزير الخارجية شولتز حيال «الإرهاب الدولي» أصبح «همه الشاغل» إثر الانفجار الانتحاري الذي تعرضت له مشاة البحرية الأمريكية في لبنان في أكتوبر عام ١٩٨٣م، فقد كانت قوات اعتبرها الكثير من الشعب، وليس بالمستغرب تماماً، كقوة جيش أجنبي أرسلت لتفرض «النظام الجديد» الذي شرعه العدوان الإسرائيلي. وكتب باري روبين أن «الهدف الأهم للإرهاب الذي تدعمه سوريا داخل لبنان، هو إجبار القوات الإسرائيلية ومشاة البحرية الأمريكية على الانسحاب»، بينما قامت كل من إيران وسوريا بدعم «النشاط الإرهابي» من خلال «جماعات شيعية متطرفة» في جنوب لبنان، كان من أمثلته الهجمات التي شنت على «جيش لبنان الجنوبي المدعوم إسرائيلياً». وبالنسبة للمدافع عن إرهاب الدولة، تعد مقاومة الجيش المحتل أو مرتزقته المحليين إرهاباً يستحق انتقاماً قاسياً. وعلى وتيرة

واحدة يصف توماس فريدمان مراسل صحيفة تايمز في إسرائيل الهجمات الموجهة ضد القوات الإسرائيلية في جنوب لبنان بأنها «هجمات إرهابية» أو «إرهاب انتحاري» فقد كانت، يؤكد لنا، نتاج «مرض نفسي أو حماسة دينية». ويروى كذلك أن المقيمين داخل «الحزام الأمني» الإسرائيلي الذين ينتهكون القواعد التي شرعها المحتلون «قد قتلوا في الحال مع إرجاء التحقيقات، وبعض من أولئك الذين قتلوا كانوا متفرجين أبرياء». بيد أن هذه الممارسة لا تعد إرهاب دولة. ويشير كذلك إلى أن إسرائيل «قد بذلت جهداً كبيراً للحد من تسرب الأخبار خارج المنطقة»، «فلم يسمح للصحفيين تغطية آثار الهجمات الانتحارية ولم يصرح فعلياً بمعلومات عنها». لم تمنع هذه الحقيقة بينه وبين الكتابة بمزيد من الثقة عن الخلفية والأوضاع النفسية واضطرابات أولئك الذين نعتهم المحتلون بصفة «إرهابيين».

ويينما يهنئ ريجان وبيريز بعضهما بعضاً على موقفهما ضد «الإرهاب البغيض» أمام مستمعيهما الذين يجلسونهما، أوردت الصحافة عملاً إرهابياً آخر وقع في جنوب لبنان، فقد أشارت العناوين الرئيسية في نفس اليوم إلى أن «إرهابيين يقتلون ستة ويدمرون محطة راديو مسيحية تملكها الولايات المتحدة في جنوب لبنان»، ولماذا يدمر إرهابيون لبنانيون «صوت الأمل» الذي يديره المبشرون المسيحيون الأمريكيون؟ سؤال لم يطرح، لكن دعونا نبحث فيه، بغية توضيح مفاهيم الإرهاب والثأر.

أحد الدوافع هو أن المحطة «تنطق باسم جيش لبنان الجنوبي» وهو قوة المرتزقة التي زرعتها إسرائيل في جنوب لبنان لإرهاب الشعب المتواجد داخل «حزامها الأمني»، ويجدر بالملاحظة أيضاً مركز المحطة الواقع بالقرب من قرية الخيام. والخيام هذه لها قصة شهيرة في لبنان وإسرائيل إن لم تكن شهيرة في الولايات المتحدة. فقد ألح زائيف شيف إلى هذه القصة خلال عمليات بيريز التي سماها القبضة الحديدية. لاحظ شيف أن إسرائيل عندما اجتاحت لبنان في عام ١٩٨٢م كانت قرية الخيام «خاوية من السكان»، وبرغم ذلك فإن عدد سكانها الآن يبلغ ١٠,٠٠٠، وأن مدينة النبطية اللبنانية كان يقطنها ٥٠,٠٠٠، وعدد سكانها الآن ٥٠,٠٠٠. وأوضح شيف أن «هؤلاء وآخرون سوف يجبرون على ترك منازلهم إذا سمحوا للمتطرفين من شعبهم أو الفلسطينيين بمهاجمة المستوطنات الإسرائيلية». ذلك سوف يكون مصيرهم إذا سخروا من قوات الدفاع الإسرائيلي، التي كانت تهاجم آنذاك القرى اللبنانية وتقتل المدنيين بشكل عشوائي وتقوم بالتدمير في دفاع ضد «الإهاب» [الذي] لم يخفت، حيث كانت «الغارات تقع يومياً على الجنود الإسرائيليين في جنوب لبنان».

وبالنسبة إلى اللبنانيين الموجه إليهم التحذير، وبالنسبة إلى الإسرائيليين - أو على الأقل بعض منهم - لم يكن شيف بحاجة إلى تفسير سبب انخفاض عدد سكان مدينة النبطية إلى ٥٠٠٠، وخلو قرية الخيام من سكانها بحلول عام ١٩٨٢ م. فقد دفع القصف الإرهابي الإسرائيلي منذ أوائل السبعينيات سكان الخيام إلى الخروج من قريتهم وأودى بحياة المئات. وقُتلت الحفنة المتبقية من سكان الخيام خلال اجتياح لبنان عام ١٩٧٨ م، تحت مرأى من لواء الجولان المتميز، على يد ميليشيا حداد الموالية لإسرائيل، والتي «نجحت في إقامة سلام نسبي في المنطقة، ومنع عودة إرهابيي منظمة التحرير الفلسطينية». هكذا شرح رجل السلام.

تعد الخيام أيضاً موقع «سجن سرى» تديره إسرائيل والمليشيات المحلية الموالية لها في جنوب لبنان. . حيث وُضع المحتجزون تحت ظروف مريعة، وخضعوا إلى الضرب والتعذيب بالصدّات الكهربائية، طبقاً لتزلاء سابقين ومسئولى الإغاثة الدولية في المنطقة». وذكر تقرير للصليب الأحمر أن «الإسرائيليين كانوا يديرون المركز»، ورفضت قوات الدفاع الإسرائيلي السماح له بالدخول. وفي تأكيد منه على هذه التقارير، يُردف هورويتز قائلاً بأن إسرائيل قد تعلمت «الدرس»، لذا فقد ربت أن تتولى مرتزقة جيش لبنان التابعة لها إدارة غرفة التعذيب في الخيام، كى تشيخ بالنقد عنها. ولم تحظ تقارير التعذيب المطولة لأسرى سابقين باهتمام فى الولايات المتحدة، غير أنها حظيت به فى أماكن أخرى. ويرى بول كيسلر (من كلية فرنسا، وواحد من مؤسسى لجنة الأطباء الفرنسية المعنية باليهود السوفييت) مستنداً إلى هذا الدليل، أن معظم السجناء «قد قبض عليهم كمشتبه فيهم خلال عمليات البحث، أو أنهم كانوا قرويين قبض عليهم لرفضهم التعاون مع قوة الاحتلال، وبشكل خاص، لرفضهم الانضمام إلى «ميليشيا جيش لبنان الجنوبي» التى تقودها إسرائيل، ولم يُقاض أحد منهم أو يُحاكم، وبرغم ذلك فقد احتجز البعض منهم لأكثر من عام. وكانت الخيام هى المركز الرئيسى، غير أنها لم تكن المركز الوحيد. ويستمر كيسلر فى روايته «حول عمليات التعذيب النظامية التى يقوم بها حرس جيش لبنان الجنوبي الذى يدير السجون بتوجيه من الضباط الإسرائيليين».

قد يكون هناك الكثير يبقى ذكره، خلال تلك الفترة، حول الهجوم الإرهابى الذى شنه «متعصبون» على الخيام فى السابع عشر من أكتوبر عام ١٩٨٥ م. لبت أموراً مثل هذه تعد ملائمة لأن تصبح جزءاً من ذاكرة التاريخ بجانب أعمال إرهاب أخرى ذات نفع أيديولوجى عظيم.

عن النبطية أيضاً هناك قصص أخرى تستحق أن تحكى . فقد قام اثنان من مراسلي صحيفة جورساليم پوست ممن كانوا يطوفون جنوب لبنان في محاولة للتقيب عن دليل على إرهاب منظمة التحرير الفلسطينية والأعمال الوحشية، برغم وجود دليل قوى على الإرهاب الإسرائيلي وآثاره، فرار ٥٠,٠٠٠ من سكانها الذين يبلغ عددهم ٦٠,٠٠٠ نسمة . فقد كان الفرار «على الأغلب بسبب الخوف من قصف المدافع [الإسرائيلية]» أحد أعمال القصف هذه وقع في الرابع من نوفمبر عام ١٩٧٧م، حيث وقعت النبطية تحت قصف مدفعي ثقيل من مواقع مارونية لبنانية [تدعمها إسرائيل]، وكذلك من بطاريات إسرائيلية على جانبي الحدود - ومن بعض النقاط الإسرائيلية القوية الست داخل الجنوب، واستمرت الهجمات إلى اليوم التالي وأسفرت عن مقتل ثلاث نساء بالإضافة إلى خسائر أخرى . وفي السادس من نوفمبر أطلقت فتح صاروخين أسفرا عن مقتل إسرائيلييين في ناهاريا، مما أشعل معركة بالمدفعية، ووقع هجوم صاروخي ثان أسفر عن مقتل إسرائيلي واحد، ثم وقعت الغارات الإسرائيلية التي قتل فيها حوالي ٧٠ شخصاً كان معظمهم من اللبنانيين .

وذكر الرئيس المصري السادات بأن هذا التبادل الذي كانت إسرائيل البادئة فيه، كان الدافع وراء عرضه لزيارة القدس التي جاءت بعد عدة أيام .

دخلت هذه الأحداث ذاكرة التاريخ بشكل مختلف، ليس في الصحافة فقط، بل في الثقافة أيضاً . «ففي محاولة لإعاقعة الحركة التي تدعو إلى إقامة مؤتمر سلام» كتب إدوارد هالي (دون استناد إلى دليل) قائلاً: «لقد قامت منظمة التحرير الفلسطينية بإطلاق صواريخ كاتيوشا على قرية نهاريا الواقعة شمال إسرائيل في السادس والثامن من نوفمبر، أدت إلى مقتل ثلاثة أشخاص» وتحريك «الانتقام الإسرائيلي المحتم» في التاسع من نوفمبر، والذي سقط فيه من القتلى أكثر من مائة شخص في هجمات «داخل وحول صور ومدينتين صغيرتين تقعان في الجنوب» .

وكما هي القاعدة في التاريخ المنقح، يلعب الفلسطينيون دور الإرهابيين، ويلعب الإسرائيليون دور المنتقمين الذين يأخذون بالثأر، يثار وربما بقسوة كبيرة . أما في عالم الواقع فتختلف الحقيقة كثيراً، وتلك مسألة ليس لها أدنى أهمية في دراسة الإرهاب في الشرق الأوسط .

نادراً ما أشارت الصحافة الغربية إلى مأساة نبطية، وبرغم ذلك فهناك بعض الاستثناءات . ففي الثاني من ديسمبر عام ١٩٧٥م وقعت إحدى الهجمات

الإسرائيلية، حيث قامت القوات الجوية الإسرائيلية بقصف المدينة وقتل العشرات من المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين باستخدام أسلحة مضادة للأفراد وقنابل وصواريخ. وتعد هذه الغارة غير عادية، ذلك أن الصحافة أوردتها دون أن تثير اهتماماً أو قلقاً؛ ربما لأنها بدت «ثأراً»، فقد كانت ثأراً تجاه مجلس الأمن الذي وافق على تخصيص جلسة لمناقشة مقترحات سلام دعمتها سوريا والأردن ومصر ومنظمة التحرير الفلسطينية.

استمرت وتكررت القصة مع تغيير طفيف. ففي أوائل عام ١٩٨٦م، وبينما كانت أنظار العالم متجهة في هلع نحو الإرهابيين المختلين في العالم العربي، أوردت الصحافة أن مدافع الدبابات الإسرائيلية قد صبت وإبلها على قرية صريفيا بجنوب لبنان، حيث استهدفت ثلاثين منزلاً كانت قوات الدفاع الإسرائيلي قد ادعت أنها تعرضت لإطلاق نار منها بواسطة «إرهابيين مسلحين» كانوا يقاومون عملياتها في خلال ما وصفته بأنه بحث عن جنديين إسرائيليين تم «اختطافهما» داخل «الحزام الأمني» الإسرائيلي في لبنان. واستبعد التقرير الذي أعدته قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام من الصحافة الأمريكية بشكل كبير. يشير التقرير إلى أن القوات الإسرائيلية قد «فقدت صوابها بالفعل» خلال هذه العمليات، حيث قامت بإغلاق قرى بأكملها، ومنعت قوات الأمم المتحدة من إرسال الماء واللبن والبرتقال إلى القرى التي كنت تخضع لـ «عمليات استجواب» - أي عمليات تعذيب وحشية للرجال والنساء على يد قوات إسرائيلية ومرتزقتها المحلية، مع تاهب من قوات الدفاع الإسرائيلي. رحلت قوات الدفاع الإسرائيلي آنذاك وأخذت معها الكثير من القرويين بما في ذلك النساء الحوامل، نقل البعض منهم إلى إسرائيل في انتهاك آخر للقانون الدولي، وقامت بتدمير المنازل ونهب وهدم الأخرى منها، بينما صرح شمعون بيريز بأن بحث إسرائيل عن الجنود المختطفين يعبر عن موقفنا تجاه قيمة الحياة الإنسانية ومنزلتها.

وعقب شهر واحد، أفاد راديو لبنان، في الرابع والعشرين من شهر مارس: «أن قوات إسرائيلية، إما كانت قوات الدفاع الإسرائيلي أو مرتزقة جيش لبنان الجنوبي، قد قامت بقصف نبطية، مما أدى إلى مقتل ثلاثة مدنيين وإصابة اثنين وعشرين، حيث ضربت القذائف السوق التجاري وسط المدينة عند مطلع النهار حيث يحتشد العامة للتسوق». وقد زعم بأن الهجوم كان ثأراً لهجمة شنت على قوات المرتزقة الموالية لإسرائيل في جنوب لبنان. أقسم أحد زعماء حركة أمل الشيعية بأن «المستوطنات والمنشآت الإسرائيلية لن تكون بمنأى عن ضربات المقاومة». وفي السابع والعشرين من

مارس ، ضرب صاروخ كاتيوشا فناء مدرسة تقع شمالي إسرائيل أدى إلى إصابة خمسة أشخاص وتحريك هجوم إسرائيلي على مخيم للاجئين الفلسطينيين يقع قرب صيدا ، أسفر عن مقتل عشرة أشخاص وجرح اثنين وعشرين ، بينما صرح قائد المنطقة الشمالية الإسرائيلية عبر راديو جيش إسرائيل ، بأن قوات الدفاع الإسرائيلي لم تحدد ما إذا كان الصاروخ قد أطلقتها عصابات شيعية أم أن عصابات فلسطينية هي التي قامت بإطلاقه . وفي السابع من شهر إبريل ، قامت الطائرات الإسرائيلية بقصف نفس المخيمات وقرية مجاورة مما أسفر عن مقتل اثنين وإصابة عشرين بادعاء أن الإرهابيين قد انطلقوا منها بنية قتل مواطنين إسرائيليين .

ومن كل هذه الأحداث ، نال الهجوم الصاروخي الذي وقع على شمال إسرائيل تغطية تليفزيونية غاضبة وحنقاً عاماً على «الإرهاب» ، وبرغم ذلك فقد أغلق الباب على هذا الموضوع إلى حد ما ، نظراً للهستيريا الكبيرة التي أثرت آنذاك حول «اجتياح» نيكاراغوا للهندوراس ، حيث مارس جيش نيكاراغوا حقه المشروع في عمل عسكري ليخرج من أرضه عصابات إرهابية كان قوادها الأمريكيون قد أرسلوها في عرض للقوة قبيل تصويت مجلس الشيوخ على تقديم المساعدات إلى الكونترا . ويشير ذلك إلى أن القضية الخطيرة فقط التي تخضع للنقاش والجدال هي ما إذا كان جيش الوكالة بمقدوره تحقيق الأهداف التي أكلها إليه سيده . وعلى النقيض من ذلك ، لم تكن إسرائيل تمارس حقاً مشروعاً في عمل عسكري بقصفها للمدن ومخيمات اللاجئين ، ولا تقع مطلقاً أعمال الإرهاب الجماعي التي تقوم بها ولا عدوانها السافر على لبنان تحت هذا المفهوم . ولكن بوصفها دولة عميلة ، تراث إسرائيل من الإمبراطور حق الإرهاب والتعذيب والعدوان . ونيكاراجوا بوصفها عدوة تفتقر بوضوح إلى الحق في الدفاع عن أرضها ضد إرهاب دولي أمريكي . وبناء على ذلك ، فإنه من الطبيعي وجوب تجاهل أعمال إسرائيل أو صرفها عن النظر ، لأنها تار مشروع ، في الوقت الذي شجب فيه الكونغرس ، «الماركسيين اللينينيين النيكاراغويين» لهذا الدليل الجديد على التهديد الذي يفرضونه على سلام واستقرار المنطقة .

قُدّم أيضاً الاجتياح الإسرائيلي للبنان في يونيو عام ١٩٨٢م بصورة متفحة على نحو ملائم . فقد كتب شمعون بيريز أن عملية «سلام الجليل» قد شنت «لضمان عدم تعرض الجليل مرة أخرى إلى قصف بصواريخ كاتيوشا» ، وأوضح إيريك برايندل أن «الهدف الأساسي للاجتياح الإسرائيلي في عام ١٩٨٢م» كان بلا ريب «حماية منطقة الجليل . .

من هجمات صواريخ الكاتيوشا والقصف الآخر القادم من لبنان»، وتخبّرنا صفحات الأخبار لصحيفة تايمز بأن الاجتياح قد بدأ «إثر هجمات شنتها عصابات منظمة التحرير الفلسطينية على مستوطنات شمال إسرائيل»، وبأن (دون تعليق) القادة الإسرائيليين «قد أشاروا إلى أنهم كانوا يرغبون في وضع نهاية للهجمات المدفعية والصاروخية التي تقع على الحدود الشمالية لإسرائيل»، وهو العمل الذي «تحقق خلال الثلاث سنوات التي قضاها الجيش الإسرائيلي في لبنان».

وأضاف هنري كام أن «أهل كيريات شيمونا لم يناموا في ملاجئ القنابل ولم يشعر الآباء بالقلق على أطفالهم عند ذهابهم إلى المدارس أو إلى اللعب لمدة ثلاث سنوات تقريباً. ولم تسقط صواريخ الكاتيوشا السوفيتية الصنع التي ضربت هذه المدينة التي تقع بالقرب من الحدود اللبنانية لعدة سنوات على فترات عشوائية، منذ أن قامت إسرائيل باجتياح لبنان في يونيو عام ١٩٨٢م». ويرى توماس فريدمان أن «المجتمع الإسرائيلي سوف يغضب إذا ما سقطت الصواريخ مجدداً على الحدود الشمالية لإسرائيل بعد كل ما أنفق في لبنان». «... ففي الوقت الراهن توقف سقوط الصواريخ على شمال إسرائيل. . . وإذا ما بدأت مجدداً هجمات كبيرة على الحدود الشمالية لإسرائيل فإن الأقلية [التي تفضل بقاء الجيش في لبنان] قد تتحول إلى أغلبية». «تمت عملية سلام الجليل - الاجتياح الإسرائيلي للبنان - في المقام الأول لحماية السكان المدنيين من المدافع الفلسطينية»، هكذا يقرر فريدمان في واحدة من القصص العديدة المعنية بالإنسان في كفاح الإسرائيليين المعذنين. وتدافع الشخصيات السياسية عن نفس المعتقد باستمرار. كتب زيبينو بريزنيسكي أن «زيادة التواجد العسكري السوري واستغلال منظمة التحرير الفلسطينية للبنان للإغارة على إسرائيل، قد عجلنا من الاجتياح الإسرائيلي [لعام ١٩٨٢م]» ويدعونا رونالد ريجان، في إبداء آخر لجن الأخلاق، إلى أن «نتذكر أن إسرائيل كان عليها - عندما بدأ كل ذلك [الاجتياح]، نظراً لانتهاكات وقعت على حدودها الشمالية من قبل الفلسطينيين، ومنظمة التحرير الفلسطينية - أن تجتاز الطريق إلى بيروت»، حيث كان هناك «عشرة آلاف فلسطيني [!] جلبوا الدمار على بيروت» وليس المعتدين الذين كان يدعمهم.

تساعد هذه الروايات وعدد آخر لا يحصى، يحتوي الكثير منها على وصف دقيق للعذاب الذي حل بأهل الجليل الذين خضعوا إلى قصف الكاتيوشا العشوائي، في خلق الصورة المعتمدة للمتعبين الفلسطينيين المجهزين بأسلحة سوفيتية، وهم عنصر

رئيسى لشبكة الإرهاب الدولى ذات القاعدة الروسية ، مما دفع إسرائيل إلى اقتحام وضرب مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، وأهداف أخرى ، مثلما كانت أى دولة ستفعل للدفاع عن شعبها من هجوم إرهابى عديم الرحمة .

يختلف عالم الواقع ، مرة أخرى . فقد كتب ديفيد شپلر أن «خلال الأربع سنوات التى تفصل بين الاجتياح الإسرائيلى الأول لجنوب لبنان فى عام ١٩٧٨م واجتياح السادس من يونيو عام ١٩٨٢م ، قتل إجمالى ٢٩ شخصاً فى شمال إسرائيل خلال كافة أشكال الهجمات التى جاءت من لبنان بما فى ذلك من قصف وعمليات تسلل عبر الحدود من قبل إرهابيين» غير أن «الحدود كانت هادئة» لمدة عام قبل اجتياح عام ١٩٨٢م . ويعد هذا التقرير غير عادى فى اقتراجه على الأقل من نصف الحقيقة . فى الوقت الذى تراجعت فيه منظمة التحرير الفلسطينية عن عمليات التسلل عبر الحدود لمدة عام قبل الاجتياح الإسرائيلى لم تكن الحدود هادئة ، حيث استمر الإرهاب الإسرائيلى الذى أودى بحياة العديد من المدنيين . فالحدود كانت «هادئة» فقط فى المصطلحات العنصرية للخطاب الأمريكى مرة ثانية . بالإضافة إلى ذلك لم يُشر شپلر وكذلك أقرانه ، إلى أنه فى الوقت الذى قتل فيه تسع وعشرون شخصاً شمالى إسرائيل منذ عام ١٩٧٨م ، قتل الآلاف من جراء عمليات القصف الإسرائيلى فى لبنان ، ولم يُشر إلى ذلك فى الولايات المتحدة ، وفى الأوقات النادرة أشير إليه بوصفه «عملاً ثأرياً» .

تعد أعمال القصف التى وقعت منذ عام ١٩٧٨م عنصراً رئيسياً فى «عملية سلام» كامب ديفيد التى ، تكهن بأنها ، أطلقت يد إسرائيل فى مد سيطرتها وقمعها فى الأراضى المحتلة ، فى الوقت الذى كانت تشن فيه هجوماً على جارتها الشمالية بهدف الحصول على زيادة سريعة فى الدعم العسكرى الأمريكى مع خروج العائق العربى الرئيسى (مصر) من الصراع فى ذلك الوقت . ويرى ويليام كوانت أن «خطة عملية اجتياح لبنان سعيًا وراء منظمة التحرير الفلسطينية [فى ١٩٨١ إلى ١٩٨٢م] يبدو أنها قد تزامنت مع التوصل إلى معاهدة السلام المصرية الإسرائيلىة» . ويجدر بالذكر أن الصحفيين الأمريكيين الأكفاء قد فطنوا إلى المغزى الحقيقى لاتفاقات كامب ديفيد ، برغم عدم الإفصاح عنه كلية داخل الولايات المتحدة ، منذ ذلك الوقت وصاعداً . وهكذا فى إحدى المقابلات التى أجريت معه فى إسرائيل ، أشار ديفيد شپلر إلى أنه «بالنسبة إلى الجانب الإسرائيلى ، يبدو لى أن معاهدة السلام قد أعدت الموقف للحرب

فى لبنان، ومع خروج مصر من وضع المواجهة، شعرت إسرائيل بالحرية فى بدء حرب على لبنان، وهو شىء ربما ما كانت لتجرؤ على فعله قبل معاهدة السلام. . ومن السخرية أن حرب لبنان ما كانت لتقع بدون معاهدة السلام، إنها ليست سخرية بل هى جزء جوهري فى العملية. وعلى حد علمى، لم يكتب شپلر ذلك فى صحيفة تايمز خلال الخمس سنوات التى قضاها كمراسل للصحيفة فى إسرائيل وانتهت فى يونيو عام ١٩٨٤م، أو فى وقت لاحق لهذا التاريخ.

أردف شپلر قائلاً: «أعتقد بأنه ما كانت لتحدث مثل هذه المعارضة الكبيرة للحرب بين الإسرائيليين ما لم توجد مثل تلك المعاهدة للسلام»، ونظراً لتواجده فى إسرائيل خلال ذلك الوقت، لم يفشل شپلر فى التوصل إلى أن «المعارضة الكبيرة للحرب» هى اصطناع دعائى لاحق أعد للحفاظ على صورة «إسرائيل الجميلة». فالمعارضة كانت بالفعل ضعيفة، إلى أن وقعت مذبحتنا صبرا وشتيلا تلو الحرب (عندما هجر المؤيدون للحرب فى الولايات المتحدة المركب الغارقة، وصنعوا تاريخاً مخادعاً للمعارضة المبكرة» مثلما حدث فى مسألة حرب الهند الصينية) ثم بعد ازدياد تكاليف الاحتلال.

وبالانتقال إلى عالم الواقع، يؤخذ فى الاعتبار أولاً الخلفية المباشرة لعملية «سلام الجليل». فقد التزمت منظمة التحرير الفلسطينية بوقف إطلاق النار المرتب أمريكياً فى يوليو عام ١٩٨١م برغم المحاولات الإسرائيلية المتكررة لإثارة عمل ما يستخدم كذريعة لعملية الاجتياح المخطط لها. اشتملت على قصف وقع فى أواخر شهر أبريل عام ١٩٨٢م أسفر عن مقتل ٢٤ شخصاً، وإغراق قوارب صيد. . إلخ. والتوقعات الوحيدة كانت عبارة عن نأر خفيف وقع فى شهر مايو عقب القصف الإسرائيلى، ورد فعل على القصف الإسرائيلى الثقيل والهجمات الأرضية التى وقعت فى لبنان فى شهر يونيو، حيث سقط فيها العديد من القتلى المدنيين. فقد كانت هذه الهجمات الإسرائيلىة «ثأراً» لمحاولة اغتيال السفير الإسرائيلى فى لندن على يد «أبو نضال» وهو العدو اللدود لمنظمة التحرير الفلسطينية، والذى لم يكن له مكتب فى لبنان - ومرة أخرى، قصة «الثأر» المألوفة. فقد كانت محاولة الاغتيال هذه هى الذريعة التى استخدمت للاجتياح الذى خطط له طويلاً.

تطالعنا صحيفة نيوريبابليك بأن نجاحات مفاوضات الأمم المتحدة برايان أوركهارت «كانت نجاحات بسيطة، ومنسية إلى حد ما، مثل مفاوضة لوقف إطلاق نار فلسطينى فى جنوب لبنان عام ١٩٨١م على سبيل المثال»، فإن رغبة صحف الفريق المتشدد فى

«نسيان» الحقائق ليس بالمستغرب، غير أن انتشار زلات موائمة كزلات الذاكرة هذه لهو أمر جدير بالملاحظة.

اتبعت أحداث شهر يوليو عام ١٩٨١م نفس النمط كثيراً. ففي الثامن والعشرين من شهر مايو، كتب زائيف شيف وإيهود يأري، أن رئيس الوزراء مناحم بيغن ورئيس هيئة الأركان رفائيل إيتان «قد خطا خطوة أخرى قد تضع دولتهما بشكل كبير على مشارف حرب على لبنان، بعمل أعد بشكل أساسى لتحقيق هذه الغاية»، أى أنهما قد قاما بخرق وقف إطلاق النار، وذلك بقصف «مراكز منظمة التحرير الفلسطينية» (مصطلح يستخدم عادة في الإشارة إلى ضحايا القصف الإسرائيلي، أيًا كانت هذه الضحايا) في جنوب لبنان. واستمرت الهجمات من البر والبحر حتى الثالث من يونيو، يتابع شيف ويأري «بينما قام الفلسطينيون بالرد بحذر شديد خشية أن يؤدي رد فعل قوى إلى تحريك عملية أرضية إسرائيلية ساحقة». وطبق مجدداً وقف لإطلاق النار خرقتة إسرائيل مرة ثانية في العاشر من شهر يوليو بعمليات قصف جديدة. وفي هذه المرة كان هناك رد فعل فلسطيني بهجمات صاروخية أفزعت الجليل الشمالية، وأتبعها قصف إسرائيلي ثقيل لبيروت وأهداف مدنية أخرى. وفي خلال ذلك الوقت أعلن وقف لإطلاق النار في الرابع والعشرين من شهر يوليو، مع سقوط حوالى ٤٥٠ عربى - جميعهم تقريباً من المدنيين اللبنانيين - وستة إسرائيليين.

من كل هذه القصة، ذكر فقط العذاب الذى تعرضت له الجليل الشمالية التى خضعت لقصف عشوائي بالكاتوشا، قام به إرهابيو منظمة التحرير الفلسطينية، مما دفع إسرائيل فى نهاية الأمر إلى التآمر باجتياحها للبنان فى يونيو عام ١٩٨٢م. وتعد هذه حقيقة، فى بعض الأحيان، حتى لدى الصحفيين الجادين الذين ليس لهم قنوات اتصال مع الدعاية الرسمية. فقد كتب إدوارد والش أن «الهجمات الصاروخية المتكررة التى وقعت عام ١٩٨١م قد وضعت [كيريوات شيمونا] تحت الحصار مجدداً»، ووصف وضع «الآباء المذهولين» والإرهاب الذى نتج عن «قصف المدفعية والصواريخ المنطلقة من القواعد الفلسطينية القريبة»، دون إشارة أخرى إلى ما كان يحدث. وكتب كيرتس ويلكى، أحد أكثر الصحفيين الأمريكيين فى الشرق الأوسط تدقيقاً وإدراكاً، أن كيريوات شيمونا «وقعت تحت نيران مدمرة انطلقت من قوات منظمة التحرير الفلسطينية

فى عام ١٩٨١م، فوابل صوارىخ الكاتىوشا السوفىىىىة الصنع، كان كىىفأ إلى درجة أن أولئك المقىمىن الذىن لم يفروا كان مضطرىن إلى قضاء ثمانية أيام ولىال متعاقبة فى ملاجئ القنابل». ومرة ثانية دون إشارة إلى دوافع هذه «النار المدمرة»، أو إلى الوضع فى بىروت أو إلى المناطق المبنىة الأخرى، حىث قتل المئات خلال القصف الإسرائىلى المدمر.

ىقدم المئال رؤىة أعمق عن مفاهىم «الإرهاب» و«الشأر»، كما أولت داخل النظام الأىدىولوجى الأمريكى. وكذلك فى الافتراضات التى تستثنى، كنتىجة طبعىة، معاناة الضحايا الرئىسىن، وذلك للأسباب المعتادة.

إن القصة الرسمىة التى تشير إلى أن «الهجمات الصاروخىة والمدفعىة على الحدود الشمالية لإسرائىل» قد توقفت بفضل عملىة «سلام الجلىل» هى قصة مخادعة على نحو مضاعف. أولاً: فالحدود كانت «مستقرة» لمدة عام قىبل الاجتىاح، باستثناء الهجمات والتحرشات الإرهابىة الإسرائىلىة، وكانت الهجمات الصاروخىة الكبىرة، التى وقعت فى شهر يوليو عام ١٩٨١م، عبارة عن رد فعل على الإرهاب الإسرائىلى الذى جنى فى هذه الحادثة وحدها من الأرواح حوالى مائة ضعف ما جناه رد فعل منظمة التحرير الفلستىنىة. وثانىاً: فى تباىن صارخ مع الفتره السابقة، فقد بدأت الهجمات الصاروخىة ضد إسرائىل عقب انتهاء الاجتىاح واستمرت منذ أوائل عام ١٩٨٣م. وذكرت مجموعة من الصحفىن الإسرائىلىن المنشقىن أنه خلال أسبوعىن من شهر سبتمبر عام ١٩٨٥م، أطلق على الجلىل أربعة عشر صاروخاً. إضافة إلى ذلك، ازدادت «الهجمات الإرهابىة» بنسبة ٥٠ بالمائة داخل الضفة الغربىة فى خلال الأشهر التى تلت الحرب، وازدادت إلى ٧٠ بالمائة بنهاىة عام ١٩٨٣م منذ الحرب على لبنان، وأصبحت تمثل تهديداً خطىراً بحلول عام ١٩٨٥م، فلم تكن نىجة مستغربة لأعمال وحشىة ولتدمير للمجتمع المبنى والنظام السىاسى للفلستىنىن.

لم ىكن التهديد الذى تعرضت له الجلىل الشمالية هو الدافع الحقىقى وراء اجتىاح عام ١٩٨٢م، كما ىذكر التارىخ المنقح بل العكس كما أعرب الاختصاصى الإسرائىلى القىادى فى شئون الفلستىنىن، الپروفىسور ىهوشوا پوراث بالجامعة العبرىة (وهو أحد «المعتدلىن» فى الحوار الإسرائىلى ومؤىد لفكرة حزب العمل فى «الحل الأردنى»

للفلسطينيين) عقب شن الغزو بشكل مقبول ظاهرياً. يشير پوراث إلى أن قرار الاجتياح «قد نبع من حقيقة أن وقف إطلاق النار قد تم الالتزام به»، حيث كان ذلك يمثل «كارثة حقيقية» إلى الحكومة الإسرائيلية؛ نظراً لأنه كان يهدد سياسة التملص من تسوية سياسية. «فأمل الحكومة»، يستطرد پوراث، «أن تعود منظمة التحرير الفلسطينية المضروبة، والتي تنقصها الإمكانيات التنظيمية، والقاعدة الأرضية التي تعمل منها، فتقوم بتفجيرات في كافة أنحاء العالم واختطاف الطائرات وقتل كثير من الإسرائيليين»، وبذلك «تخسر جزءاً من الشرعية الدولية التي حصلت عليها» و«تستأصل خطر» إجراء مفاوضات مع ممثلين فلسطينيين، مما قد يهدد سياسة - يشترك فيها الحزبان الكبيران - الحفاظ على سيطرة قوية على الأراضي المحتلة.

يشير افتراض القيادة الإسرائيلية الذي يبدو معقولاً إلى أن أولئك الذين يُصيغون الرأي العام داخل الولايات المتحدة - الدولة الوحيدة التي تأخذ بعين الاعتبار أن إسرائيل قد اختارت أن تصبح دولة مرتزقة تعمل على خدمة مصالح عائلها - بالمقدور الاعتماد عليهم لطمس التاريخ الحقيقي وتصوير الأعمال الإرهابية، التي نتجت عن العدوان الإسرائيلي، الفظائع بأنها أعمال عنف عشوائية، يمكن عزوها إلى عيوب في الثقافة والشخصية العربية، إن لم تكن نقصاً راديكالياً. ويستكمل التعليق الأمريكي التابع التشخيصات، بانقلاب دعائي مناسب لإرهاب الدولة، في القدس وواشنطن.

أدركت إسرائيل - تماماً - النقاط الأساسية. فقد صرح رئيس الوزراء إسحاق شامير على شاشات التلفزة، بأن إسرائيل قد دخلت في حرب بسبب وجود «خطر كبير... ليس كبيراً بالقدر العسكري، بقدر ما هو كبير سياسياً»، مما حث الهجاء الإسرائيلي البارغ بي مايكل على أن يكتب «لقد مات العذر الواهي المتعلق بالخطر العسكري، أو الخطر الجليلي» حالما قمنا «بإزاحة الخطر السياسي» بالمبادرة بالضرب، والآن «شكراً لله لم يعد هناك ما نتحدث معه». وعلق الكاتب أرون باكار قائلاً: «إنه لمن السهل فهم وضع القيادة الإسرائيلية. فقد اتهم عرفات بالتحرك باستمرار نحو نوع ما من التسوية السياسية مع إسرائيل» و«من وجهة نظر الإدارة الإسرائيلية، يعد ذلك أسوأ تهديد ممكن» - يشمل ذلك حزب العمل وكذلك الليكود.

ويرى الصحفي/ المؤرخ بينى موريس أن «منظمة التحرير الفلسطينية قد أوقفت نيرانها على طول الحدود الشمالية لمدة عام كامل . ومنعتها بشكل كامل - في عدة مناسبات - عن الرد على الأعمال الإسرائيلية (التي أعدت بشكل خاص لاستدراج نيران منظمة التحرير الفلسطينية). وبالنسبة للضباط الكبار في قوات جيش الدفاع، يستطرد موريس، «تأسست حتمية الحرب على منظمة التحرير الفلسطينية لأنها تمثل تهديداً سياسياً لإسرائيل ولسيطرة إسرائيل على الأراضي المحتلة»، حيث إن «آمال الفلسطينيين داخل وخارج الأراضي المحتلة لتحقيق طموحات وطنية قد اعتمدت على وتدور في فلك منظمة التحرير الفلسطينية» وكأى معلق سوى، يسخر موريس من الحديث الهستيري حول الأسلحة المستولى عليها والتهديد العسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية، ويتنبأ بأن «شيعة غرب بيروت، كثيراً منهم كانوا لاجئين من عمليات القصف الإسرائيلي السابقة لجنوب لبنان في السبعينيات، قد يتذكرون لأمد طويل حصار يونيو - أغسطس [١٩٨٢م] الذي فرضته قوات جيش الدفاع» مع ترديدات طويلة الأجل عن «إرهاب شيعي ضد أهداف إسرائيلية».

وعلى جانب اليمين، أشار إيهود أولمرت عضو الكنيست الذي ينتمي إلى الليكود إلى أن «الخطر الذي فرضته منظمة التحرير الفلسطينية على إسرائيل لا يكمن في تطرفه، بل يكمن في اعتداله الزائف، الذي استطاع عرفات أن يعرضه دون أن يُغفل هدفه الأساسى مطلقاً، وهو القضاء على إسرائيل» (حقيقة تقبل الإثبات على شاكلة هدف ديفيد بن جوريون، عندما كان على رأس الحكم، لم يغفل مطلقاً هدفه الأساسى فى التوسع إلى «حدود الطموحات الصهيونية» لتشمل جزءاً كبيراً من الدول المحيطة، وفى بعض الأحيان «الحدود التوراتية» من النيل إلى العراق، فى حين يُمكن نقل السكان الأصليين بطريقة ما). وذكر البروفيسور مناحم ملسون مدير الضفة الغربية الأسبق أن «من الخطأ الاعتقاد بأن التهديد الذى تمثله منظمة التحرير الفلسطينية لإسرائيل هو من النوع العسكرى بالدرجة الأولى، بل إنه من النوع السياسى الأيديولوجى»، وقبيل الاجتياح أوضح أرييل شارون وزير الدفاع أن «الاستقرار فى الضفة الغربية» يستلزم «القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان»، وفيما بعد علق رفيقه اليميني المتطرف رفائيل إيتان رئيس هيئة الأركان بأن الحرب كانت نجاحاً حيث إنها أضعفت كثيراً «الوضع السياسى» لمنظمة التحرير الفلسطينية و«كفاح المنظمة

لإقامة دولة فلسطينية»، بينما أكدت على قدرة إسرائيل «في إحباط أى هدف مماثل». وفي تعليقه على مثل هذه التصريحات، يرى المؤرخ العسكرى الإسرائيلى يورى ميلشتين (أحد المؤيدين لفكرة حزب العمل فى «الحل الأردنى») أن أحد أهداف الاجتياح فى مفهوم شارون - إيتان كان «وضع نظام جديد فى لبنان والشرق الأوسط» لدفع العملية الساداتية^(١) فى الكثير من الدول العربية «لضمان ضم جوديا وساماريا [الضفة الغربية] إلى دولة إسرائيل» و«ربما للتوصل لحل للمشكلة الفلسطينية».

كتب عضو الكنيست أمنون روبنشتين الذى لقى استحساناً كبيراً داخل الولايات المتحدة لموقفه الليبرالى الحمائى أنه برغم الالتزام بوقف إطلاق النار «تقريباً» (يصف بذلك التزام منظمة التحرير الفلسطينية ولا يعنى به التزام إسرائيل) إلا أن اجتياح لبنان كان «له مبرراته»، نظراً لتهديد كامن وليس لتهديد عسكرى فعلى، فالأسلحة واللخائر الموجودة فى لبنان كانت بقصد الاستخدام ضد إسرائيل فى نهاية الأمر. تفكر فى المعانى المتضمنة لهذه الحجة فى سياقات أخرى حتى وإن أخذنا على محمل جاد المزاعم حول التهديد العسكرى الكامن الذى تمثله منظمة التحرير الفلسطينية لإسرائيل.

يلاحظ أن روبنشتين قد استبق المعتقد الرائع الذى أعلنته إدارة ريجان لتبرر قصفها لليبيا فى إبريل عام ١٩٨٦م فى «دفاع عن النفس ضد هجوم مستقبلى»، والذى سنخرج عليه فى الفصل التالى.

يسلم المؤيدون الأمريكيون للأعمال الوحشية الإسرائيلىة بنفس الحقائق من وقت لآخر. فقبيل الاجتياح، حث محرر صحيفة نيوريبابليك مارتن بيريتز - محاكياً شارون وإيتان - إسرائيل على أن تقوم بواجبها، وأن تدبر لمنظمة التحرير الفلسطينية «هزيمة عسكرية أبدية» داخل لبنان، بحيث «تكشف للفلسطينيين فى الضفة الغربية أن كفاحهم لإقامة دولة مستقلة قد تكبد نكسة لسنوات طويلة» لكى «يتحول الفلسطينيون إلى أمة أخرى محطمة كالأكراد والأفغان»، وأوضح الاشتراكى الديمقراطى مايكل والزر - الذى يرى أن الحل للعرب الفلسطينيين - داخل إسرائيل أيضاً - يكمن فى ضم هذه «الفئة القليلة الأهمية داخل الأمة» - فى صحيفة نيوريبابليك عقب الحرب، حيث قال «أرحب بالتأكيد بالهزيمة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأعتقد أن العملية

(١) نسبة إلى الرئيس الراحل السادات، رحمه الله - المترجم.

العسكرية المحدودة التي كانت ضرورية لإنزال تلك الهزيمة يمكن الدفاع عنها بموجب نظرية الحرب المشروعة» .

من المثير للاهتمام ملاحظة التقارب في هذه القضايا بين اليمين الإسرائيلي المتطرف والليبرالية اليسارية الأمريكية .

وبشكل موجز، كانت أهداف الحرب أهدافاً سياسية يأتى فى صدارتها الأراضى المحتلة و«النظام الجديد» فى لبنان . أما قصة حماية الحدود من الإرهاب، فهى عملية دعائية . وإذا ما عاود الإرهاب الفلسطينى نشاطه أصبحت الفائدة عظيمة . وإذا لم نستطع تعليق اللوم على عرفات، فىمكن على الأقل وصفه بأنه «الأب المؤسس للإرهاب الفلسطينى المعاصر» (نيوريبابليك) كى يتملص من جهوده التى ترمى إلى تسوية سياسية .

لم تنته مشكلة التملص من تسوية سياسية برغم القضاء على القاعدة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، كما كان مرجوفاً لها، لذا ظل من الضرورى التأهب لمحاربة التهديد والدفاع عن الحقيقة العقائدية؛ ذلك أن الولايات المتحدة وإسرائيل ينشدان السلام، غير أن الرفض العربى أعاق السلام . وهكذا فى شهرى أبريل ومايو عام ١٩٨٤م، أطلق عرفات سلسلة من التصريحات فى أوروبا وآسيا دعا فيها إلى عقد مفاوضات مع إسرائيل تقود إلى اعتراف مشترك . وعلى الفور رفضت إسرائيل العرض وتجاهلته الولايات المتحدة . واحتلت رواية لوكالة اليونائتدپرس حول مقترحات عرفات صدر الصفحة الأولى فى صحيفة سان فرانسيسكو إيكزامينر، ونشرت الحقائق دون إبراز لها فى الصحف المحلية . أما الصحافة الوطنية [التي لا تقتصر فى أخبارها وتوزيعها على الولاية]، فقد طمست الرواية برمتها باستثناء ذكر ضئيل لها فى صحيفة واشنطن بوست عقب عدة أسابيع . وفرضت صحيفة نيويورك تايمز كذلك حظراً على الأعمال التى تشير إلى الحقائق، بينما استمرت (بالاشتراك مع صحف أخرى) فى شجب عرفات لعدم رغبته فى اتباع حلول دبلوماسية . وبشكل عام فكلما زاد نفوذ الصحيفة زاد تصميمها على طمس الحقائق، موقف طبيعى تماماً يأخذ فى الحسبان موقف حكومة الولايات المتحدة فى هذه القضايا .

يدرك الإسرائيليون المطلعون موقف عرفات دون شك . إذ يرى اللواء (متقاعد) يهوشافات هاركابى، الرئيس الأسبق للمخابرات العسكرية، وهو مستعرب اشتهر بأنه

صقر للعديد من السنوات ، بأن «منظمة التحرير الفلسطينية ترغب فى تسوية سياسية؛ نظراً لأنها تعلم أن البديل مرعب وسوف يؤدي إلى تدمير كامل» ، لذا «تبنى عرفات مواقف معتدلة نسبياً فيما يتعلق بإسرائيل» .

تؤكد هذه الملاحظات على عدة نقاط :

١- هناك إطار سياسى حاسم يجب أن يفهم الإرهاب من خلاله ، إذا ما كنا جادين .

٢- إن جرائم الآخر ، وليست جرائمنا المماثلة لها أو الأسوأ منها ، هى التى تشكل «الإرهاب» الجرائم الفلسطينية ، وليست الإسرائيلية ولا الأمريكية .

٣- استخدمت مفاهيم «الإرهاب» و«الشار» كمصطلحات للدعاية وليست كمصطلحات للوصف .

وبشكل جذرى ، عمدت الهستيريا التى أثيرت حول أعمال الإرهاب - المتتقة بعناية ، تلك التى قام بها العرب سواء كانوا فلسطينيين أو شيعة لبنانيين أو ليبين أو سوريين أو حتى إيرانيين - إلى تحقيق أهداف سياسية خاصة محددة .

نعتبر مرة أخرى مسألة الشار . فقد وقع أول هجوم صاروخى قام به الشيعة بعد عام ١٩٨١م ضد كيريات شيمونا فى شهر ديسمبر عام ١٩٨٥م بعد ما يقرب من أربعة أعوام من احتلال عسكري ذى وحشية مفرطة ، بلغت ذروتها خلال عمليات القبضة الحديدية التى نفذتها حكومة شمعون بيريز أوائل عام ١٩٨٥م . غير أن التغطية الإخبارية العرضية لوحشية المحتلين قد فشلت فى نقل القصة الكاملة ، حيث إنها تجاهلت الواقع اليومى . وينطبق نفس الوضع على التغطية العرضية للأعمال الوحشية الإسرائيلية داخل الأراضى المحتلة ، التى فشلت فى نقل الصورة الحقيقية للإذلال الوحشى والقمع واستغلال العمالة الرخيصة (بما فى ذلك الأطفال) والسيطرة الفظة على الحياة السياسية والثقافية وتقليص التنمية الاقتصادية . وقبل شهر من وقوع الهجوم الصاروخى ، قدمت جولى فلنت صورة أكثر إيضاحاً تروى فيها «قصة الحياة والموت فى إحدى قرى جنوب لبنان» حيث الشيعة . فقد كانت كفر رمان «مدينة زراعية مزدهرة يسكنها ثمانية آلاف شخص» تقع بالقرب من النبطية ، وذلك خلال الفترة التى كان يخضع فيها جنوب لبنان إلى إرهاب منظمة التحرير الفلسطينية فقط ، طبقاً للتاريخ

الرسمى . وعقب ما أسمته صحيفة نيويورك تايمز «تحررها» من نير منظمة التحرير الفلسطينية، أحيطت «بمحنيين هائلين» قام بإنشائهما الإسرائيليون ووكيلهم اللبناني المتمثل فى «جيش جنوب لبنان» الذى قام بعمليات قنص وقصف متواصلة، «استمرت فى بعض الأحيان من الفجر إلى ظلمة الليل، وفى أحيان أخرى لعدة ساعات فقط»، أسفرت عن سقوط الكثير من القتلى، وأدت إلى فرار ٦٠٠٠ شخص وجعل ثلاثة أرباع المدينة غير أهلة بالسكان فى هذه «القرية المحتضرة»، حيث لا يوجد أثر لأنشطة المقاومة، وشعبية بسيطة لها بين مزارعين لا يعنون بالسياسة، فوق رقعة جرداء لتل منبسط .

هل كان قصف كيريات شيمونا «إرهاباً غير ناتج عن تحرش» أم «ثأراً»، وإن طرحت جانباً الفظائع الفتاكة لعمليات القبض الحديديّة التي قادها بيريز ورايين؟

إلقاء نظرة على سير حياة الإرهابيين يُعتبر عملاً تنويرياً . فقد أجرت صحيفة واشنطن پوست مقابلة مع أحد الإرهابيين فى سلسلة من خمسة أجزاء تدور حول الإرهاب بالطريقة الانتقائية التقليدية . وباعتباره قضى عقوبة ثمانية عشر عاماً فى سجن إسرائيلى، فقد تم اختياره بوصفه «نموذجاً محاكياً تماماً للإرهابيين الموجودين فى السجون حالياً من لندن إلى الكويت» . «فى حياته مأساة ذاتية (موت والده فى انفجار قبله فى القدس عام ١٩٤٦م) صاحبها اكتشاف عقيدة (الماركسية) مما أقحمه فى عالم القتل السياسى العمد» . «والقبلة التي قتلت والده، وأكثر من تسعين شخصاً آخر، كانت من إعداد الجماعة السرية الصهيونية إيرجون التي قام بقيادتها مناحم بيغن بمركز القيادة العسكرية البريطانية، فى فندق الملك داود» . فقد تعرف على الماركسية، كما قال، من خلال «واقع الظروف فى المخيمات الفلسطينية» داخل الضفة الغربية المحتلة . إن «واقع» الأراضى المحتلة، ليس فقط داخل المخيمات، واقع حقيقى، ومرير وقاس، خارج صفحات مقالات تحرير صحافة الأمة، حيث نعلم أن الاحتلال كان «نموذجاً للتعاون فى المستقبل» و«تجربة فى التعايش بين العرب والإسرائيليين» . والإيضاح لا يعنى التبرير، غير أن بعض الأسئلة تطرح نفسها حول الاستخدام السلس لمصطلحات مثل مصطلح «الثأر» .

أو نفكر فى سليمان خاطر الجندى المصرى الذى قام فى الخامس من أكتوبر عام ١٩٨٥م بقتل سبعة سائحين إسرائيليين كانوا على شاطئ بحر فى سيناء . فقد أوردت الصحافة المصرية قول والدته بأنها «سعيدة لموت هؤلاء اليهود» ووصف طبيب من قريته

قرية بحر البقر عملية القتل بأنها إنذار موجه إلى «السلام الوهمي» بين مصر وإسرائيل . وما هو السبب وراء رد الفعل الفطري هذا الجريئة لا توصف؟ ربما يوحى قصف تونس الذي سبقها بعدة أيام بالسبب، وربما يكون هناك أسباب أخرى . ففي عام ١٩٧٠م قامت الطائرات الحربية الإسرائيلية بقصف بحر البقر، مما أدى إلى مقتل ٤٧ تلميذاً، خلال «حرب الاستنزاف» و«تتأثر القصف الإسرائيلي الواسع - حيث وصل بعضه إلى داخل عمق مصر - مليون ونصف من المدنيين من منطقة قناة السويس أن يهاجروا من مدنهم وقراهم، وأنذر بحرب شاملة، حينما أسقطت طائرات الفانتوم الأمريكية الحديثة، طائرات ميج كان يقودها طيارون سوفيت فوق الأراضي المصرية، وكانت تدافع عن العمق الداخلي لمصر .

هناك شيء ما مفقود، وكذلك عندما ذكر مراسل صحيفة تايمز بسلاسة أن خاطر «قد تصرف من منطلق دوافع وطنية معادية لإسرائيل» لم يكن ليتجاهل قصة بحر البقر وهجرة مليون ونصف مدني من جراء القصف الجوي، لو كان الوضع معكوساً بين مصر وإسرائيل .

يرى ديفيد هيرست أن «مركز الإرهاب الرئيسي أو المركز الأهم بلا شك [بالمعنى الغربي للمصطلح] هو لبنان» . فهو إما ينتج الإرهابيين، أو يخدم كدار ملائمة للوافدين : إما الفلسطينيين «الذين لم يعرفوا شيئاً غير القصف والقتل والذبح والتشويه والكراهية والخوف والخطر، أو اللبنانيين الذين لقي مجتمعهم ضربة قاضية من قبل العدوان الإسرائيلي المدعوم أمريكياً» «وإحدى القنوات المتجذرة في عقول شباب اليوم» داخل تلك الجماعات هي أنه «تحت حكم الرئيس ريجان، الذي حمل الانحياز التقليدي لدولته تجاه إسرائيل إلى آفاق غير مسبوقه، أصبحت الولايات المتحدة هي الداعم القوي للنظام القائم بأسره، والذي أصبح لا يطاق إلى درجة أن أي وسيلة الآن تبرر القضاء عليه . وربما يكون دافع الإرهاب أقوى بين الفلسطينيين، غير أنه قد يكون أقوى بين اللبنانيين والعرب أو - في أقصى ظهور له - بين الشيعة» .

اتضح النقطة الأساسية من خلال يهوشافات هركابي : «تقديم حل عادل للفلسطينيين يحترم حقهم في تقرير المصير : ذلك هو حل مشكلة الإرهاب . فعندما يزول المستنقع لن يكون هناك مزيد من الناموس» .

أسهم إرهاب الجملة، والعدوان الأمريكي الإسرائيلي بشكل مؤكد في الموقف الذى يصفه هرست، تنبؤا وربما بوعى، ومن المحتمل أن كلا من الدولتين الإرهابيتين قد رضيت بالنتيجة التى تمنحهما مبرراً للاستمرار فى دربهما الذى يتسم بالرفض والعنف. علاوة على ذلك، يمكن استغلال إرهاب القطاعى الذى أسهما فيه، فى إحداث شعور مناسب بالخوف وتعبئة داخل المجتمع، مثلما هو لازم لمزيد من الأهداف العامة. فكل المطلوب هو نظام عقائدى يصرخ جماعياً عندما تستدعى الضرورة، ويقمع أى إدراك لمبادرات الولايات المتحدة، وطمعها، ومصادرها، ودوافعها. وبذلك المنطق، يلزم صانعى السياسة إيجاد عدة مخاوف، كما يشير السجل.

وصفت الأعمال الإرهابية من قبل مدبريها على نحو مميز بأنها «أعمال تأرية» (أو فى حالة الإرهاب الأمريكى والإسرائيلى بأنها «وقائية»)، من ثم فإن قصف تونس كان تاراً مزعوماً لحوادث القتل فى لارناكا، مثلما أشير إليه، برغم عدم وجود ادعاء بأن ضحايا قصف تونس قد كان لهم علاقة بحادثة لارناكا. بُررت الحادثة الثانية أيضاً بأنها «تأر»، إذ كانت رد فعل لقيام إسرائيل باختطاف سفن كانت مبحرة من قبرص إلى لبنان. وسُلم فى الولايات المتحدة بالادعاء الأول بوصفه مشروعاً ولم يلق بال إلى الادعاء الثانى أو استهزئ به. تمييز بنى على التزام أيديولوجى، طبقاً للقاعدة.

بطرح المبررات التى بررت العنف الإرهابى جانباً، ومتابعة سجل الحقائق، فليس هناك شك فى أن إسرائيل كانت تقوم بتنفيذ عمليات اختطاف للسفن والأشخاص فى البحار للعديد من السنوات، رافقها قليل من التعليق وعدم الاكتراث داخل الولايات المتحدة فيما يتعلق بهذه الجريمة، التى أثارت قلقاً وغضباً كبيرين عندما كان المدبرون هم العرب. بل إن المحكمة العليا الإسرائيلية قد اعتمدت على هذا الإجراء. وعندما تقدم عربى بعريضة استئناف لحكم سجن صدر بحقه بموجب أنه ألقى القبض عليه خارج المياه الإقليمية الإسرائيلية، أصدرت المحكمة العليا الحكم بأن «قانونية الحكم والحبس لا تتأثر بالطريقة التى جلب بواسطتها المشتبه فيه إلى الأراضى الإسرائيلية»، وأقرت (مرة أخرى) بأن المحكمة الإسرائيلية قد تصدر حكماً على شخص قام بأعمال - خارج إسرائيل - تعتبرها أعمالاً إجرامية. فى هذه الحالة، أوضحت المحكمة أن «أسباباً أمنية» جعلت من الضرورى بقاء مقدم عريضة الاستئناف فى السجن.

بالعودة إلى سجل التاريخ، ففي عام ١٩٧٦م، طبقاً لعضو الكنيست (اللواء متقاعد) ماتياهو بيلد، بدأ الأسطول الإسرائيلي في الاستيلاء على قوارب يملكها مسلمون لبنانيون - سلمها إلى الحلفاء المسيحيين اللبنانيين الموالين لإسرائيل الذين قاموا بقتلهم - في محاولة لإجهاض خطوات نحو مصالحة رتب لها بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل . سلم رئيس الوزراء رايبين بالحقاتق غير أنه ذكر أن القوارب قدم الاستيلاء عليها قبل هذه الترتيبات، بينما رفض وزير الدفاع شمعون بيريز أن يعلق على الحادثة . وعقب مبادلة سجناء تمت في نوفمبر عام ١٩٨٣م، ذكرت رواية في صدر صحيفة تايمز في المقطع الثاني عشر منه أن ٣٧ من السجناء العرب، الذين احتجزوا في معسكر سجن أنسار ذى السمعة السيئة، «قد ألقى الأسطول الإسرائيلي القبض عليهم مؤخراً، بينما كانوا يحاولون شق طريقهم من قبرص إلى طرابلس» شمالي بيروت، ملاحظة لم تستحق التعليق هناك أو في أماكن أخرى .

في يونيو، من عام ١٩٨٤م، قامت إسرائيل - تحت وابل من القصف - باختطاف «عبارة» كنت تبخر بين قبرص ولبنان، وذلك على مبعدة خمسة أميال من الساحل اللبناني، وأجبرتها على التوجه إلى حيفا، حيث اعتقلت تسعة أشخاص، ثمانية منهم كانوا لبنانيين وتاسعهم كان سورياً . أطلق سراح خمسة منهم بعد استجوابهم واحتجز أربعة بينهم امرأة وصبي كانوا عائدين إلى بيروت من إجازة في إنجلترا وأطلق سراح اثنين بعد ذلك بأسبوعين، بينما ظل مصير الآخرين غير معلوم . واعتبرت المسألة غير مهمة على الإطلاق . واقترحت صحيفة الأوبزرفر اللندنية أن هناك «دافعاً سياسياً» يجبر المسافرين على ركوب عبارة تبخر من ميناء جونية الماروني بدلاً من الركوب من غرب بيروت الذي يسيطر عليه المسلمون، ليدرك اللبنانيون أنهم «بلا قوة»، ويجب أن يتوصلوا إلى اتفاق مع إسرائيل . شجبت لبنان «عمل القرصنة» هذا الذي وصفه جود فرى يانسن بأنه «بند آخر» في «قائمة طويلة من اللصوصية الدولية» لإسرائيل . و«للاستمرار في العمليات الإرهابية البحرية» أردف يانسن قائلاً «قصف الإسرائيليون آنذاك جزيرة صغيرة قبالة طرابلس قيل بأنها قاعدة للقوات المحمولة بحراً لمنظمة التحرير الفلسطينية»، وهذا ادعاء رفضه يانسن بوصفه «هزلياً»، وذكرت الشرطة اللبنانية أن ١٥ شخصاً قد قتلوا، وأصيب عشرون وفقد عشرون، جميعهم من اللبنانيين، صيادين وأطفال، كانوا بمعسكر كشافة .

في تقريرها حول «الاعتراض» الإسرائيلي (وبشكل أكثر دقة، الاختطاف) للعبارة، لاحظت صحيفة تايمز أن قبيل حرب عام ١٩٨٢ م، «قام الأسطول الإسرائيلي بشكل مستمر باعتراض السفن المتجهة نحو مينائي صور وصيدا في الجنوب أو المغادرة لهما للفتيش عن العصابات»، وكما هو معتاد، سلمت الصحيفة بالادعاءات الإسرائيلية على ظاهرها: أما «اعتراض» سوريا لسفن مدنية إسرائيلية بذريعة ماثلة، فقد اعتبر مختلفاً قليلاً. وعلى نحو مماثل، سُلم باختطاف إسرائيل لطائرة مدنية ليبية في الرابع من فبراير عام ١٩٨٦ م، بريادة جاش، وانتقد، إذا ما كان انتقد بالمرة، بوصفه خطأ بني على أخطاء استخباراتية. وفي الخامس والعشرين من شهر أبريل عام ١٩٨٥ م، تم اختطاف العديد من الفلسطينيين من قوارب مدنية كانت تبخر بين لبنان وقبرص واقتيدوا إلى وجهات سرية داخل إسرائيل، حقيقة أصبحت علنية (داخل إسرائيل) عندما أجرى التلفزيون الإسرائيلي، مقابلة مع أحدهم، مما دفع بأهالي المخطوفين إلى التقدم بالتماسات للمحكمة العليا، ويحتمل أن هناك آخرين، لا نعلم عنهم شيئاً.

لم تثر أى من هذه الحالات، التي ظهر معظمها من خلال التعليق العابر فقط، أى اهتمام فيما عدا ذكر عابر أن «سجناء الأمن» العرب الذين أطلق سراحهم في عملية تبادل مع سوريا، كانوا في الواقع «مقيمين مع الدروز بالقرى التي تقع في القسم الذي ضمته إسرائيل من مرتفعات الجولان الاستراتيجية». وقد اعتبر أنه امتياز لإسرائيل القيام باختطاف السفن واختطاف الأشخاص، حين تشاء، وكذلك قصف ما تطلق عليه «أهدافاً إرهابية» بمصادقة من الرأي السائد في الولايات المتحدة، مهما كانت الحقائق.

ينبغي علينا أن نمكث برهة للوقوف على الهجوم الإسرائيلي على الجزيرة التي تقع قبالة طرابلس شمالي بيروت، حيث قتل فيها صيادون لبنانيون، وكشافة من الصبية بمعسكر للكشافة. لقي هذا الهجوم اهتماماً ضئيلاً، غير أن تلك هي القاعدة في حالة مثل هذه الفظائع الإسرائيلية المستمرة بخلاف الهجمات الفلسطينية وأكثرها رعباً تلك العملية الوحشية التي وقعت في معالوت عام ١٩٧٤ م، حيث قتل ٢٢ عضواً من جماعة للشباب البرلمانيين في تبادل لإطلاق النار، عقب أن رفض موسى ديان - إثر اعتراضات اللواء موردخاي جور - النظر في إجراء مفاوضات حول مطالب الإرهابيين بإطلاق سراح السجناء الفلسطينيين. وقد يتساءل المرء: لماذا يعد مقتل الكشافة

اللبنانيين عملية أقل وحشية؟ وفى الواقع، ليس الأمر هكذا على الإطلاق، إذ أنها قد دبرت من قبل «دولة تعنى بالحياة الإنسانية» (واشنطن بوست) صاحبها «هدف أخلاقى سام» (تايم) وربما يكون فريداً فى التاريخ .

قبل يومين من هجمة معالوت، قامت الطائرات الإسرائيلية بقصف قرية الكفر اللبنانية حيث قتل أربعة مدنيين . وطبقاً لإدوارد سعيد، وقعت هجمة معالوت «بعد أسبوعين من القصف الإسرائيلى المستمر بقنابل النابالم لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى جنوب لبنان» حيث قُتل أكثر من مائتى شخص . وفى خلال ذلك الوقت، دخلت إسرائيل فى عمليات واسعة النطاق لحرق الأراضى فى جنوب لبنان وعمليات فدائية باستخدام المدافع والقنابل والأسلحة المضادة للأفراد والنابالم، ربما قتل فيها الآلاف (لم يعلق الغرب لذلك، إذ لم تتوفر أرقام محددة عن هذه العمليات) ودفع بمئات الآلاف شمالاً إلى الأحياء الفقيرة التى تحيط ببيروت، فقد كان الاهتمام سطحيًا والتقارير ضئيلة . ولم تدرج أى من هذه العمليات فى حوليات الإرهاب، كأنها لم تحدث بقدر ما كان التاريخ المنضبط معنيًا . غير أن الهجمات الإرهابية الفلسطينية الدموية التى وقعت فى أوائل السبعينيات قد أدينت (بالطبع طبقاً للعقيدة) بشكل لاذع، ولا زالت قائمة كدليل على أن الفلسطينيين لا يمكن أن يكونوا شركاء فى مفاوضات حول مصيرهم . وفى خلال ذلك الوقت، أدينت وسائل الإعلام على نحو منتظم لكونها مبالغة فى انتقاد إسرائيل، بل مؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية - انقلاب فى الدعاية ذو أبعاد كبيرة .

قد نلاحظ التأويل المقدم لهذه الأحداث من قبل القيادات الإسرائيلية التى كرمت بوصفها قيادات معتدلة كإسحاق رابين الذى عمل سفيراً لدى واشنطن ثم أصبح رئيساً للوزراء خلال فترة أسوأ الفظائع الإسرائيلية فى لبنان قبل معاهدة كامب ديفيد، يقول إسحاق رابين فى مذكراته «لم نستطع تجاهل وضع المدنيين فى جنوب لبنان . . . وقد كان من واجبننا الإنسانى مساعدة سكان المنطقة ومنع إبادة الإرهابيين العدوانيين لهم» . لم يعثر نقاد مذكرات رابين على شىء خطأ فى هذه الكلمات، فقد وضع بفعالية كبيرة تاريخاً ذا نفع أيديولوجى، وعنصرية شديدة معادية للعرب فى الغرب .

من الجدير بالملاحظة أيضاً أن إسرائيل ليست بمفردها فى التمتع بحق القرصنة والاختطاف . فقد اتهم تقرير لوكالة تاس يدين اختطاف أخيلى لورو فى أكتوبر

١٩٨٥م الولايات المتحدة بالنفاق، حيث إنها منحت الرجلين اللذين قاما باختطاف الطائرة السوفيتية وقتلا مضيقة الطائرة وجرحا أفراد الطاقم حق اللجوء إلى الولايات المتحدة التي رفضت تسليمهما.

هذه القضية غير معروفة على الإطلاق، وقد يبدو أن اتهام النفاق له فوائد. القضية أيضاً غير فريدة، إذ يرى إبراهيم سوفر، المستشار القانوني لوزارة الخارجية، أنه «خلال الخمسينيات، برغم الاعتراض الكبير لأمريكا على اختطاف الطائرات، إلا أنها وحلفاءها الغربيين قد رفضوا طلبات قدمتها تشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتي وپولندا ويوغسلافيا وأنظمة اشتراكية أخرى، بإعادة الأشخاص الذين اختطفوا طائرات وقطارات وسفنًا ولاذوا بالفرار». ويزعم سوفر أن الولايات المتحدة «قد راجعت سياستها» في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات «عندما بلغت عمليات اختطاف الطائرات نسباً وبائية» وفرضت «مشكلة خطيرة جداً وتهديداً كبيراً جداً لسلامة المسافرين الأبرياء يجب رفعه»، واستطرد موضحاً أن عمليات الاختطاف بدأت في التوجه ضد الولايات المتحدة وحلفائها، وبذلك دخلت تحت مسمى الإرهاب بدلاً من أن تقع تحت مسمى المقاومة البطولية لأعمال القمع.

يجب أيضاً الإشارة إلى أول حادثة اختطاف طائرة في الشرق الأوسط - تلك الحادثة التي لم تكن عملاً مألوفاً - نُفذت من قبل إسرائيل في ديسمبر عام ١٩٥٤م، حيث اعترضت المقاتلات الإسرائيلية طائرة مدنية تابعة للخطوط الجوية السورية وأجبرتها على الهبوط في مطار ليدا. فقد كانت نية رئيس هيئة الأركان موسى ديان، طبقاً لما كتبه رئيس الوزراء موسى شاريت في يومياته الخاصة، هي «احتجاز رهائن بغية إطلاق سراح أسرانا في دمشق». كان الأسرى جنوداً إسرائيليين قُبض عليهم خلال مهمة تجسس داخل سوريا. وإنه نفسه ديان الذي - كى لانسي - رتب بعد ٢٠ عاماً محاولة الإنقاذ التي أدت إلى مقتل الصبية الإسرائيليين في معالوت، في محاولة لإطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين في إسرائيل. وكتب شاريت للخاصة: «ليس لدينا مبرر على الإطلاق للاستيلاء على الطائرة»، وأنه ليس لديه «سبب للشك في صدق التأكيد الحقيقي لوزارة الخارجية الأمريكية، أن العمل الذي قمنا به ليس له سابقة في تاريخ الممارسة الدولية»، غير أن الحادثة اختفت من التاريخ، إذ ظهر على التلفزيون الإسرائيلي سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة بنيامين نتياهو - الذي أصبح حالياً معلقاً مفضلاً على الإرهاب الدولي

يحظى باستحسان كبير - واتهم منظمة التحرير الفلسطينية بأنها «ابتدعت» اختطاف الطائرات وكذلك قتل الديپلوماسيين، دون أن يخشى التكذيب.

أما فيما يخص قتل الديپلوماسيين، فيمكننا أن نشير فقط إلى حادثة اغتيال وسيط الأمم المتحدة فولك بيرناردوت في عام ١٩٤٨م على يد جماعة إرهابية تزعمها الرئيس المباشر لتتياهو وزير الخارجية إسحاق شامير، وهو واحد من القادة الثلاثة الذين أعطوا أوامر الاغتيال. واعترف سراً صديق مقرب لـ «بن جوريون» بأنه كان واحداً من الذين قاموا بعملية الاغتيال، غير أن «بن جوريون» احتفظ بالأمر سراً، وبأن الحكومة الإسرائيلية قد رتبت لهروب أولئك المسؤولين عن عمليات الاغتيال من السجن ومغادرة الدولة. وفي تقرير شهادته، كتب المؤرخ الصهيوني جون كيمش «لم يكن هناك احتجاج على مستوى الأمة قاطبة أو عزم على القبض على المذبرين، ولم يكن هناك الكثير من السخط الأخلاقي»، «فقد كان موقف الغالبية هو أن عدواً آخر لليهود قد سقط على جانب الطريق». وتلقى الاغتيال «إدانة، وتأسفاً، واستهجاناً، إذ أنه قد يعيب إسرائيل ويجعل عمل ديپلوماسيها أكثر صعوبة، وليس لأن اللجوء إلى الاغتيال كان خطأ في حد ذاته».

يعد تكريم الإرهابيين الذين شاركوا في أعمال الكفاح الوطنية تكريماً قياسياً تماماً، وبلا ريب، في داخل الولايات المتحدة أيضاً. غير أنه في الذاكرة الانتقائية نجد أعمال الأعداء فقط مكاناً بوصفها «جرائم الإرهاب البغيض».

عقب اختطاف أخيلي لورو في ثار لقصف تونس، أصبحت قضية اختطاف السفينة تمثل اهتماماً غربياً كبيراً. فقد خلصت دراسة أجرتها وكالة رويترز إلى أنه «كان هناك عدد من عمليات اختطاف السفن منذ عام ١٩٦١م»، وقدمت عدة أمثلة قام بها مسلمون، ولم تدرج على القائمة عمليات الاختطاف التي قامت بها إسرائيل.

لا يعد الاختطاف الشكل الوحيد للإرهاب الذي يسقط من القائمة ومن سجل التاريخ عندما يقوم بتنفيذه أصدقاؤنا. فقد أوضحت سفيرة الأمم المتحدة چين كيرك باتريك أن نصف سفينة الاحتجاج المناهضة للأنشطة النووية التابعة لمنظمة «جرين پيس راينبو واريور» على يد عملاء فرنسيين وقتل أحد أفرادها لا يعد إرهاباً، إذ قالت «أود أن أذكر صراحة أن الفرنسيين لم يقصدوا مهاجمة المدنيين والمتفرجين والتشويه والتعذيب أو القتل» مرافعة بمقدور الإرهابيين الآخرين أن يقدموها بسهولة. وفي

مقاتلها الافتتاحية الرئيسية، تحت عنوان «أفضل ساعات ميتران» كتبت صحيفة ذى آسيان وول ستريت جورنال أن «حملة جرين بيس هي حملة عنيفة وخطيرة بشكل أساسى . . إلى حد أن الحكومة الفرنسية كانت مستعدة لاستخدام القوة ضد راينبو واريور . . مما يشير إلى أن الحكومة قد وضعت أولوياتها فى المقام الأول». وفى صحيفة نيويورك تايمز، استعرض ديفيد هوسيجو كتاباً حول الموضوع ينتقد الفرنسيين لما قاموا به من «تخبط» و«خطأ فادح» إذ «لم يكن هناك داع» لنسف السفينة، وقد كان بمقدور الفرنسيين «الحصول على نفس المأرب بأقل دعاية غير مستحبة». ولم ترد إشارة إلى أن بعض الكلمات الأشد قسوة قد كانت ملائمة. وعلى اعتبار هذه «الغلطات» خلص هوسيجو إلى أنه «كان من الصعب تبرير عدم تجريم [وزير الدفاع] السيد هيرنو، ومن الصعب إلقاء اللوم على النيوزلنديين لاحتجاز الضباط الفرنسيين». لقد بحث هوسيجو فى أوجه التشابه مع واترجيت غافلاً جانب القياس الرئيسى، ففى تلك الحالة أيضاً قد كان هناك ضجة كبيرة حول «الغلطات» والجريمة الصغيرة، وتهته ذاتية كبيرة من قبل وسائل الإعلام، بينما تجاهلت الصحافة والكونجرس الجرائم الأكثر جسامة لإدارة نيكسون، وما سبقها من إدارات، والتي انكشفت فى ذلك الوقت باعتبارها غير ذات علاقة. فالإمبراطور مستثنى من تهمة الإرهاب أو الجرائم الأخرى، وكثيراً ما يشاركه حلفاؤه نفس الامتياز. فإنهم فى أسوأ الأحوال مدانون بتهمة «الغلطات».

ربما يستحق جورج شولتز بالفعل جائزة النفاق فى هذا الموضوع. فبينما كان يحث على القيام بحملة «قوية» على الإرهاب، وصف الادعاء بأن «إرهابى فريق ما هو مقاتل حرية فريق آخر» هو ادعاء «مخادع»:

مقاتلو الحرية أو الثوريون لا ينسفون الحافلات التى تحمل أشخاصاً غير مقاتلين. القتلة الإرهابيون هم من يقومون بذلك. مقاتلو الحرية لا يغتالون رجال الأعمال الأبرياء أو يقومون باختطاف الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال. القتلة الإرهابيون هم من يقومون بذلك. . مقاتلو المقاومة فى أفغانستان لا يدمرون القرى أو يقتلون الضعفاء^(١). الكونترا فى نيكارا جوا لا تنسف حافلات المدارس أو تقوم بأعمال إعدام جماعى للمدنيين.

(١) يقصد «بن لادن» و«المجاهدين» الذين كانوا أبطالاً للحرية فى مقاومتهم الوجود السوفيتى فى أفغانستان، وكانت تساعدهم كل الحكومات العربية وأجهزتها الأمنية والإعلامية، بالمال والسلاح والتدريب والرجال، بل والدعاء من على المنابر - المترجم.

فى الواقع ، تخصص الإرهابيون الذين يقودهم شولتز فى نيكارا جوا ، مثلما يعلم ، بشكل دقيق فى شن هجمات دموية على المدنيين والتعذيب والاعتصاب والتشويه ، فسجلهم البغيض موثق تماماً ، ومع ذلك لم يلق له بال ، وسريعاً ما طواه النسيان . وقام مقاتلو المقاومة فى أفغانستان أيضاً بتنفيذ أعمال وحشية ، فقبل حديثه بعدة أشهر فقط ، كان أصدقاء شولتز من اليونيتا فى أنجولا ، يتباهون بأنهم أسقطوا طائرات مدنية قتل فيها ٢٦٦ شخص ، وبأنهم أطلقوا سراح ٢٦ رهينة تم احتجازهم لتسعة أشهر ، اشتملوا على ٢١ برتغالياً ومرتزقة من إسبانيا وأمريكا اللاتينية ، وذكرت وكالة أسوشيتد پرس بأنهم أعلنوا كذلك عن عزمهم القيام « بحملة جديدة من إرهاب المدن » مشيرة إلى حادث الانفجار فى لواندا الذى أسفر عن ٣٠ قتيلاً وإصابة أكثر من سبعين ، عندما انفجرت فى المدينة سيارة من طراز جيب كانت محملة بالديناميت . كذلك قاموا باعتقال مدرسين أوروبيين وأطباء وآخرين . وذكرت الصحافة أن حوالى ١٤٠ أجنبى ، منهم ١٦ فينياً بريطانيا ، قد « احتجزوا كرهائن » ، وأوضح جونا س سايمى بأنه « لن يطلق سراحهم إلى أن تقدم رئيسة الوزراء تاتشر لمنظمتة نوعاً ما من الاعتراف » . واستمر هذا النوع من الأحداث على نحو مطرد ، وكان من أحد أمثله ، نسف فندق فى أبريل عام ١٩٨٦م ، حيث قتل ١٧ مدنياً أجنبياً وجرح كثيرون . وأشادت جين كيرك باتريك أن سايمى « يعد واحداً من الأبطال الحقيقيين القلائل فى عصرنا » ، وذلك فى خطابها أمام مؤتمر العمل السياسى المحافظ . فالدولة الإرهابية ينبغى عليها إبداء أحكام حازقة . ويصلح سايمى لأن يكون مقاتل حرة بالنسبة لشولتز وكيرك باتريك وقادة إرهابيين رئيسيين آخرين ، حيث إنه فى المقام الأول « تعد يونيتا الجهة الأكثر - من الجماعات العميلة بجنوب أفريقيا - حصولاً على دعم واسع النطاق ، والمستغلة فى زعزعة استقرار دول الجوار » .

وبالنسبة إلى جيوش الكونترا التى يقودها شولتز ، فإن مهمتها الرئيسية ، كما أشرنا سابقاً ، تتلخص فى احتجاز المجتمع المدنى لنيكاراجوا بأسرة كرهينة تحت تهديد الإرهاب السادى لإجبار الحكومة على التخلّى عن أى التزام تجاه حاجات الأغلبية الفقيرة ، والاتجاه إلى السياسة « المعتدلة » و« الديمقراطية » فى خدمة الحاجات السامية لمصالح الولايات المتحدة وشركائها المحليين ، مثلما هو فى أكثر الدول التى تسلك

سلوكًا حسنًا تحت حماية الولايات المتحدة . غير أنه في المناخ الثقافى الذى يزدهر فيه القادة الإرهابيون والمعتذرون ، تمر تصريحات شولتز وأخرى مثلها دون أن ترمش لها عين ، أو يرتفع حاجب .

يقع احتجاز الرهائن بشكل واضح تحت مسمى الإرهاب . من ثم ليس هناك شك فى أن إسرائيل كنت مدانة بعمل إرهاب دولى خطير عندما قامت بنقل ١٢٠٠ أسير ، أكثرهم من الشيعة اللبنانيين ، إلى إسرائيل فى انتهاك للقانون الدولى ، وذلك خلال انسحابها من لبنان ، وأوضحت بأنهم سوف تطلق سراحهم «بجدول غير محدد يقرره الوضع الأمنى فى جنوب لبنان» - أى أوضحت بأنهم سوف يبقون قيد الرهن إلى أن يُثبت السكان المحليون الذين يخضعون لحراسة من قبل القوات الإسرائيلية ومرزقتها «سلوكًا جيدًا» داخل «الحزام الأمنى» ، فى جنوب لبنان وفى المناطق المحيطة . وكما رأت مارى ماكوجرى فى حياض نادر عن الانضباط العام ، فقد كان الأسرى «رهائن داخل سجون إسرائيلية» ، «ليسوا بالمجرمين بل أخذوا كضمان ضد أى هجوم محتمل ، وقت كان الإسرائيليون يخرجون من لبنان فى نهاية الأمر» . وفى الواقع لم يكن هناك نية للخروج من جنوب لبنان حيث تحتفظ إسرائيل «بحزامها الأمنى» ، كذلك كان الانسحاب الجزئى من إنجاز المقاومة اللبنانية . وفى نوفمبر ١٩٨٣ م نُقل مائة وأربعون أسيرًا إلى إسرائيل سرًا فى انتهاك لاتفاقية عقدت مع الصليب الأحمر لإطلاق سراحهم فى عملية تبادل للأسرى عقب إغلاق مؤقت (حيث أعيد فتحه) لمعسكر سجن أنسار ، مسرح الأعمال الوحشية ، الذى وصفه كثيرًا إسرائيليون نزلوا به من قبل أو قاموا بزيارة له وأعياهم السلوك البربرى للسجانين بأنه «معسكر اعتقال» . لم يسمح للصليب الأحمر كذلك بزيارة الأسرى حتى يوليو عام ١٩٨٤ م . وصرح ناخمان شاي المتحدث باسم وزارة الدفاع الإسرائيلية بأن أربعمائة من السبعمائة وستة وستين الذين لا زالوا فى السجن قد قبض عليهم فى يونيو ١٩٨٥ م لتورطهم فى «أنشطة إرهابية» - يقصد مقاومة الاحتلال العسكرى الإسرائيلى - بينما «أوضح السيد شاي أن باقى الأسرى قد ألقى القبض عليهم لتورطهم فى أنماط نشاط سياسى أقل عنفًا ، أو تنظيم أنشطة تهدف إلى تفويض وجود الجيش الإسرائيلى فى لبنان» .

وعدت إسرائيل بإطلاق سراح ٣٤٠ من الرهائن فى العاشر من يونيو ، «غير أنها ألغت إطلاق السراح فى آخر دقيقة لأسباب أمنية لم يفصح عنها مطلقًا» ، وبعد أربعة

أيام قام شيعة لبنانيون، ذكر بأنهم من أصدقاء وأقارب الرهائن الذين تحتجزهم إسرائيل، باختطاف طائرة تابعة لشركة تى دبليو إيه فى رحلتها رقم ٨٤٧ واحتجزوا رهائن فى محاولة لإطلاق سراح الرهائن الذين تحتجزهم إسرائيل، مما أثار نوبة جديدة من الهستيريا المنظمة جيداً داخل الولايات المتحدة، وظهور أصوات عنصرية صريحة وكثير من الإدانات الموجهة إلى وسائل الإعلام لإتاحتها الفرصة للمختطفين فى بعض المناسبات لتوضيح موقفهم، وبذلك تتداخل مع النظام المنضبط الذى يعتبر ملائماً داخل مجتمع حر.

لم يفتقر الخاطفون الإسرائيليون إلى وسيلة اتصال خاصة مع وسائل الإعلام الأمريكية، التى أسعدها تقديم الرسالة نيابة عنهم، وكثيراً ما ظهرت فى شكل «أخبار».

أدينت وسائل الإعلام بشكل عام بتهمة «مساندة الإرهاب» من خلال السماح للإرهابيين بالتعبير عن موقفهم، والإشارة ليست إلى الظهور المستمر لرونالد ريجان وچورج شولتز وإليوت أبرامز والقادة الرئيسيين الآخرين أو المدافعين عن الإرهاب الذين قدموا رسائلهم دون أى دفع أو تعليق، مقدمين بذلك إطار المفاهيم وافتراضات للتقارير الإخبارية والتعليق.

رفضت الصحافة بسخرية تصريحات مختطفى طائرة تى دبليو إيه فى رحلتها رقم ٨٤٧، ذلك أنهم كانوا يرغبون فى ضمان إطلاق سراح الرهائن المحتجزين فى إسرائيل -الذين لم يكونوا رهائن فى الخطاب الأمريكى، إذ أنهم قد احتجزوا من قبل «جانينا». وانكشفت هزلية الادعاء الشيعى بسهولة، فقد أوضحت المعلقة المتميزة فلورا لويس أنه «لا يتفق مع شخصية الشيعة المقاتلين الذين يمجدون الاستشهاد ويظهرون قليلاً من النفور فى القضاء على حياة الآخرين، أن يصبح جل اهتمامهم موعد رجوع الأسرى»، شكل آخر للمفهوم النافع، ذلك أن الطبقات الأدنى شأنًا لا تشعر بالألم. زعم محررو صحيفة تايمز، دون الاستناد إلى دليل، بأن «إسرائيل قد خططت الأسبوع الماضى لتهدة الشيعة المستائين [أى قبل عدة أيام من اختطاف طائرة تى دبليو إيه]، غير أنها توانت بسبب اختطاف عدد من الفنلنديين التابعين لقوات الأمم المتحدة فى لبنان» وفى فقرة إخبارية من تسعين كلمة، أشارت صحيفة تايمز إلى الاتهام الذى قدمته فنلندا، ذلك أن أثناء هذا الحدث الذى لا يتصل بالمسألة على الإطلاق «شاهد

ضباط إسرائيليون رجال ميليشيا لبنانيين وهم يضربون الجنود الفنلنديين المختطفين الذين كانوا يخدمون مع الأمم المتحدة في لبنان، غير أنهم لم يفعلوا شيئاً لمساعدتهم»، بينما كان «أعضاء من جيش جنوب لبنان يضربونهم بقضبان حديدية وخرطوم مياه وبنادق». وزارت صحيفة تايمز قائلة «هناك الكثير من الجرائم هنا»، إذ كانت تشجب مختطفى طائرة تى دبليو إيه، والسلطات اليونانية (لتراخيها) والولايات المتحدة أيضاً - نظراً إلى «أنها فشلت في معاقبة إيران لإيوائها قاتلى الأمريكيين فى حادثة اختطاف وقعت العام الماضى». غير أن احتجاز إسرائيل لرهائن ليس واحدة من تلك الجرائم.

أكد بيرنارد لويس مؤرخ الشرق الأوسط بجامعة پرينستون، الذى توحى سمعته الثقافية بأكثر مما يستحق، بوضوح أن «المختطفين أو أولئك الذين أرسلوهم لا بد أنهم كانوا على علم تام بأن الإسرائيليين كانوا يخططون بالفعل لإطلاق سراح الشيعة وأسرى لبنانيين آخرين، وبأن تحدياً عاماً من ذلك القبيل يمكن فقط أن يؤخر، بدلاً من أن يسارع، بإطلاق سراحهم» وبمقدورهم الاستمرار فى «تحدى أمريكا وفى إذلال الأمريكيين»، إذ إنهم يعلمون أن وسائل الإعلام المتراخية سوف «تزودهم بدعاية غير محدودة، وربما أيضاً بشكل ما من أشكال الدفاع». ويمثل ذلك صوت مثقف مبجل فى صحيفة مبجلة، حقيقة تقدم مرة أخرى رؤية ثاقبة فى الثقافة الفكرية المتسلطة. ورفض محررو صحيفة نيوريبابليك حجة الشيعة فى إطلاق سراح الرهائن المحتجزين فى إسرائيل بوصفها «هراء حقيقياً»، إذ إن «اختطاف الطائرات واختطاف الرهائن والقتل والذبح هى الطرق التى ينفذ بها الشيعة والفصائل الأخرى فى لبنان عملهم السياسى»، و«الجميع يعلم» أن الأسرى الذين تحتجزهم إسرائيل كان من المقرر إطلاق سراحهم - حالما تصبح إسرائيل طيبة ومستعدة، إذا أصبحت. وصعد الرئيس ريجان من الهستيريا درجة أخرى، إذ أوضح أن «الهدف الحقيقى» للإرهابيين هو «إخراج أمريكا من العالم» فحسب. وأشار نورمان بود هوريتز إلى أن استخدام القوة ربما يؤدى إلى مقتل الرهائن الأمريكيين، وشجب ريجان لفشله فى «المخاطرة بالحياة ذاتها [أى، حياة الآخرين] فى الدفاع عن شرف الأمة». ودعى محافظ نيويورك إدوارد كوش إلى قصف لبنان وإيران، واتخذ آخرون مواقف بطولية ملائمة.

فى خلال ذلك، يستطيع القارئ اليقظ أن يكتشف داخل تقارير الأخبار الخاصة بأزمة الرهائن، أن ألفين من الشيعة اللبنانيين، بينهم ٧٠٠ طفل، قد هجروا ديارهم

نتيجة للقصف الذي تعرضوا إليه من قبل جيش جنوب لبنان الموالي لإسرائيل، الذي قصف أيضاً سيارات الحبيب التابعة لقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام، بينما «أعلن متحدث باسم الأمم المتحدة أن قوة مشتركة من القوات الإسرائيلية ورجال ميليشيا يقودهم مسيحيون، قد اجتاحت اليوم قرية تقع في جنوب لبنان وقامت باعتقال رجال من الشيعة».

عقب اختطاف الطائرة، بدأت إسرائيل في إطلاق سراح الرهائن طبقاً لجدولها الزمني، وربما زادت منه نظراً لأن عملية اختطاف طائرة ال «تى دبليو إيه» قد ركزت انتباه العالم على عملياتها الأكثر خطورة في اختطاف الأشخاص. عندما أطلق سراح ٣٠٠ شخص في الثالث من يوليو، أوردت وكالة أسوشيتدپرس شهادتهم، ذلك أنهم قد واجهوا عمليات تعذيب وتجويع، بينما الشيء الوحيد الذي سمعه توماس فريدمان الذي يكتب في صحيفة تايمز هو أن «الإسرائيليين قد عاملونا بشكل جيد..»، وكتب ريجان رسالة إلى شمعون بيريز يقول فيها «إن أزمة رهائن بيروت قد عملت على تقوية العلاقات بين دولتنا» لم يذكر شيء بشأن «أزمة الرهائن» الأخرى التي محيت من التاريخ الرسمي.

الأعمال الإسرائيلية مؤهلة بجدارة لأن توصف بأنها احتجاز رهائن، المانع الوحيد هو أن الذي قام بها عميل الإمبراطور الذي يتحرش بالعالم. فإسرائيل مستثناة من هذا الاتهام، بيد أنه من المهم بمكان التأكيد تكراراً على طبيعة المفاهيم الأوروبية للخطاب السياسي المعاصر، الذي أوكت فيه مصطلحات مثل مصطلح «إرهاب» ومصطلح «رهينة» لاستثناء عدد من النماذج الأكثر تطرفاً، في نيكاراجوا على سبيل المثال، أو في جنوب لبنان حيث احتجزت مجتمعات بكاملها كرهينة لضمان الامتثال للسيد الأجنبي. بمواصلة الحديث عن الشرق الأوسط، يجب أن ندرك أن الموضوع عند مستوى معين قد استوعبه جيداً منظمو الإرهاب الدولي. فالدافع وراء الهجوم الوحشي الذي شن على جنوب لبنان خلال السبعينيات، قد أوضحه الديپلوماسي الإسرائيلي أبا إيبان الذي يعد حمامة قيادية. يقول أبا إيبان «لقد كانت هناك رؤية منطقية، تحققت أخيراً، ذلك أن المجتمعات المتضررة يجب أن يضغظ عليها لإنهاء الأعمال العدوانية»^(١). وبشكل أوضح، فقد احتجز مجتمع جنوب لبنان كرهينة (١) بيرز وينظر لمفهوم العقاب الجماعي الذي تمارسه إسرائيل على المجتمعات التي يقاوم أفرادها الاحتلال والقمع والإذلال والإرهاب الإسرائيلي - المترجم.

للضغط عليه كي يجبر الفلسطينيين على قبول الوضع الذي حددته لهم حكومة حزب العمل التي يمثلها إيبان، الذي صرح بأن الفلسطينيين «ليس لهم دور ليلعبوه» في أي تسوية سلمية. وفي عام ١٩٧٨م أوضح موردخاي جور رئيس هيئة الأركان أن «لمدة ٣٠ عامًا . . قاتلنا ضد مجتمع يعيش في قرى ومدن». وقد أشار إلى حوادث من هذا القبيل كحادثة قصفه مدينة إربد الأردنية، وحادثة الهجرة التي نتجت عن قصف عشرات الآلاف من سكان وادي الأردن، وهجرة مليون ونصف مدني من منطقة قناة السويس، ذلك من بين الكثير من الأمثلة، التي كانت جزءاً من برنامج احتجاج المجتمعات المدنية كرهينة، في محاولة لمنع مقاومة الحل الذي تفرضه إسرائيل بالقوة، وبدأت بعد ذلك في التمسك بها وقتما رفضت إمكانية التوصل لتسوية سياسية. أحد نماذج ذلك، كان عرض السادات لمعاهدة سلام شاملة في عام ١٩٧١م لحدود مصرية إسرائيلية معترف بها دولياً. كذلك تعكس الممارسة المستمرة لإسرائيل في «الثأر» ضد أهداف مدنية عزلاء لا علاقة لها بمصدر الأعمال الإرهابية نفسها، (وكثيراً ما كانت تاراً للإرهاب الإسرائيلي سابق، وهكذا دواليك، خلال الدائرة القبيحة المعتادة) نفس المفهوم، منذ مطلع الخمسينيات، عن المقولة القديمة لـ «بن جوريون»، ذلك أن «رد الفعل غير فعال» ما لم يوجه بدقة «إذا ما عرفنا الأسرة [يجب علينا] ضربها بلا رحمة، بما في ذلك النساء والأطفال».

يعد مفهوم جور لحروب إسرائيل مفهوماً تعتقده القيادة العسكرية فيما بينها على نطاق واسع. فخلال عمليات القبض الحديدية أوائل عام ١٩٨٥م، حذر وزير الدفاع إسحاق رابين بأنه إذا اقتضت الضرورة، فإن إسرائيل سوف تتبع «سياسة حرق الأراضي كما حدث في وادي الأردن خلال حرب الاستنزاف مع مصر». وأردف قائلاً بأن «لبنان أصبحت تمثل مصدر إرهاب أكثر خطورة عما كانت في عام ١٩٨٢م». حيث إن الإرهابيين الشيعة قد وضعوا أوروبا في حالة خوف في ذلك الوقت (لم يتم الإرهابيون الشيعة بذلك قبل الاجتياح الإسرائيلي في عام ١٩٨٢م لأسباب غير معلومة)، لذا يجب على إسرائيل أن تحتفظ بحزام في الجنوب حيث من خلاله «يمكننا التدخل». وقام قائد سلاح المظلات المحنك دويك تاماري - الذي أعطى الأوامر بتسوية مخيم عين الحلوة الفلسطيني بالأرض من خلال قصف جوي ومدفعي «لإنقاذ أرواح»

القوات التي تقع تحت إمرته (ممارسة أخرى لخرافة: «طهارة السلاح») بتبرير العمل، حيث علق قائلاً بأن «دولة إسرائيل استمرت في قتل المدنيين منذ عام ١٩٤٧م». «فقد كانت تقتل المدنيين»، «كهدف من بين الأهداف الأخرى».

ساق تامارى، كمشال لذلك، الهجوم الذي وقع على قبيلة عام ١٩٥٣م، عندما قتلت الفرقة ١٠١ التي يقودها أرييل شارون، حوالي سبعين قروياً عربياً في منازلهم بحجة الثأر المزعوم من هجوم إرهابي لم يكن لهم به أى علاقة على الإطلاق، وزعم بن جوريون على أثير الإذاعة الإسرائيلية بأن القرويين قد قتلوا على أيدي مدنيين إسرائيليين أغضبهم إرهاب العرب «معظمهم [المدنيون الإسرائيليون] كان من اللاجئين وأشخاص من دول عربية وناجين من معسكرات الاعتقال النازية»، رافضاً الادعاء الوهمي «بأن القوات العسكرية الإسرائيلية كانت متورطة - أكذوبة وقحة جعلت المستوطنات الإسرائيلية عرضة لتهديد الثأر لهذه المذبحة المبيته. إن الحقيقة التي لا يعرفها الكثير من الناس هي أن قبل شهر من مذبحة قبيلة، أرسل موسى ديان الفرقة ١٠١ لإقصاء ٤٠٠٠ شخص من بدو القبائل عبر الحدود المصرية، وهي خطوة أخرى في سلسلة عمليات النفي التي بدأت منذ عام ١٩٥٠م عقب وقف إطلاق النار. وفي مارس عام ١٩٥٤م، قُتل أحد عشر إسرائيلياً في كمين حافلة نقل عام شرق النقب على أيدي أفراد من قبيلة العزازمة («إرهاب غير ناتج عن نعرش») مما تسبب في قيام إسرائيل بغارة على قرية ناهلين الأردنية التي ليس لها علاقة نهائياً بما حدث، حيث قتل فيها تسعة من القرويين («ثأراً»). وفي أغسطس عام ١٩٥٣م قامت الفرقة ١٠١ التي يقودها أرييل شارون بقتل عشرين شخصاً، ثلثيهما من النساء والأطفال في مخيم البرج للاجئين بقطاع غزة في «ثأر» لعمليات التسلل.

يمكن تعقب دائرة «الثأر» (من قبل إسرائيل) و«الإرهاب» (من قبل الفلسطينيين) خطوة بخطوة عبر العديد من السنوات. ممارسة سوف تكشف سريعاً أن قائمة المصطلحات تنتمي إلى عالم الدعاية وليست وصفاً حقيقياً.

قد نلاحظ هنا أيضاً كيف أن التاريخ قد أعيد صياغته على نحو فعال بشكل أكثر نفعاً. إذ كتب توماس فريدمان خلال استعراضه لاستراتيجية «محرارية إسرائيل

للإرهاب»، أن «الفترة الأولى، منذ عام ١٩٤٨م وحتى عام ١٩٥٦م، يفضل أن توصف بأنها عصر محاربة الإرهاب - من خلال - الثأر، أو بأنها عائد سلبي»، برغم أن «واحدة من عمليات الثأر هذه قد أصبحت مثاراً لجدل كبير، لما تضمنته من خسائر مدنية في الأرواح» والإشارة حدساً تعود إلى قبية. فسجل الثقافة في الإرهاب لا يختلف كثيراً.

إن عمليات القبضة الحديدية للجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان أوائل عام ١٩٨٥م قد حكمها أيضاً المنطق الذي أوضحه إيبان.

فقد احتجز المجتمع المدني كرهينة تحت تهديد الإرهاب، لضمان قبوله بالتسويات السياسية التي تملئها إسرائيل على جنوب لبنان والأراضي المحتلة. وظلت التحذيرات قائمة، وظل المجتمع رهينة، دون أن تهتم القوة العظمى التي تمول هذه العمليات، وتحول دون التوصل إلى تسوية سياسية ذات معنى.

وكما يعنى إرهاب الجملة، بما في ذلك احتجاز الرهائن، من الانتقاد عندما يمارسه مصدر معتمد، تُعفى العمليات الأقل درجة، كما أشرنا سابقاً. ففي شهرى نوفمبر وديسمبر عام ١٩٨٣م، على سبيل المثال، «أوضحت إسرائيل أنها لن تسمح لقوات عرفات بترك المدينة [مدينة طرابلس شمالي لبنان، حيث كانت القوات تتعرض لهجوم من قوات تدعمها سوريا] طالما أن مصير الأسرى الإسرائيليين غير محدد». لذا قامت إسرائيل بقصف ما أطلق عليه «مواقع العصابات» مما حال دون إبحار السفن اليونانية التي كان مقرراً أن تجلى الموالين لعرفات. وذكر متحدث باسم الدروز أن إحدى المستشفيات قد تعرضت لضرب خلال قصف وتدمير «ما وصف بأنه قواعد فلسطينية» شرق بيروت. بينما في طرابلس «تلقت سفينة نقل ضربة مباشرة أدت إلى غرقها». و«اشتعلت ألسنة اللهب في شاحنة بضائع جراء ضربة تلقتها. هنا أيضاً اتخذ السكان، وكذلك السفن الأجنبية، كرهينة لضمان إطلاق سراح الأسرى الإسرائيليين، الذين اعتقلوا خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان. ولم يظهر في الولايات المتحدة تعليق على هذه الفضائع.

قامت إسرائيل في البحر الأبيض المتوسط ولبنان بشن هجمات تحت حصانة من العقاب. ففي منتصف شهر يوليو عام ١٩٨٥م قامت الطائرات الحربية الإسرائيلية

بقصف وضرب المخيمات الفلسطينية التي تقع بالقرب من طرابلس، مما أسفر عن مقتل ما لا يقل عن عشرين شخصاً، كان معظمهم من المدنيين، من بينهم ستة أطفال تحت عمر الثانية عشرة. «ولعدة ساعات عقب هجوم الساعة الثانية وخمس وخمسين دقيقة ظهراً، غمرت سحب الدخان والأتربة مخيمات الفلسطينيين في طرابلس التي كانت مأوى لأكثر من خمسة وعشرين ألف فلسطيني»، والذي اعتبر تاراً لهجوم بسيارتين ملغومتين وقع قبل عدة أيام داخل «الحزام الأمني» لإسرائيل في جنوب لبنان من قبل جماعة متضامنة مع سوريا. بعد أسبوعين قامت الزوارق الحربية الإسرائيلية بمهاجمة سفينة نقل هندورية كانت تقف على بعد ميل واحد من صيدا، حيث كانت تنقل شحنة أسمنت طبقاً لقبطانها اليوناني، وأضرمت النيران فيها بثلاثين قذيفة مدفعية، كما جرح مديون جراء قصف لاحق من الشاطئ، عندما رد أفراد الميليشيا على إطلاق النار. ولم تحفل صحافة التيار السائد بتقرير أن الزوارق الحربية الإسرائيلية قد قامت في اليوم اللاحق للهجوم بإغراق قارب صيد وتحطيم ثلاثة آخرين، بينما دعى برلماني من صيدا الأمم المتحدة لوضع نهاية إلى «القرصنة» الإسرائيلية المدعومة أمريكياً. ولم تورط الصحافة شيئاً عما أطلقت عليه إسرائيل في يناير عام ١٩٨٤م، بأنه عملية «جراحية» ضد «منشآت إرهابية» قرب بعلبك في وادي البقاع أسفرت عن مقتل مائة شخص، كانوا على الأغلب من المدنيين، وجرح ٤٠٠ شخص، كان بينهم مائة وخمسون طفلاً في قصف لمبنى مدرسي. واشتملت «المنشآت الإرهابية» أيضاً على مسجد وفندق ومطعم، ومحال تجارية ومبان أخرى داخل القرى اللبنانية الثلاث التي هوجمت، وكذلك مخيم للاجئين الفلسطينيين، بينما ذكرت أخبار بيروت أن سوقاً للماشية وساحة أحد المصانع قد ضربا أيضاً مع تدمير عدد كبير من المنازل. وذكر أحد مراسلي وكالة رويترز في القرى التي طالتها القصف أن جولة ثانية من عمليات القصف قد بدأت بعد عشر دقائق من القصف الأول «لتضييف المزيد إلى عدد القتلى والجرحى»، إذ بدأ الرجال والنساء في استخراج جثث القتلى والجرحى من المباني التي دُمرت. وقد رأى «الكثير من الأطفال» في المستشفيات، بينما أفاد شهود عيان بأن الرجال والنساء كانوا يهرعون إلى المدارس في بحث مذعور عن أطفالهم. وشجب قائد شيعة لبنان «البربرية الإسرائيلية» واصفاً الهجمات على «المدنيين الأبرياء والمستشفيات ودور العبادة» بأنها

محاولة «لإرهاب الشعب اللبناني»، غير أن الحادثة مرت دون تعليق يؤثر بشكل ما على وضع إسرائيل بوصفها «دولة تعنى بالحياة الإنسانية» (واشنطن بوست)، من ثم يمكننا استنتاج أن ضحايا عملية القصف الجراحية هذه كانوا أدنى من أن يكونوا آدميين .

يمكن للمرء، مرة أخرى، تخيل ما قد يكون عليه رد الفعل في الغرب، بما في ذلك وسائل الإعلام «المؤيدة للعرب» إذا ما كانت منظمة التحرير الفلسطينية أو سوريا قد قامت «بضربة جراحية» ضد «المنشآت الإرهابية» قرب تل أبيب، وقامت بقتل مائة مدني وجرح ٤٠٠ آخرين منهم ١٥٠ طفل في قصف لمبنى مدرسي بالإضافة إلى ضحايا مدنيين آخرين .

وبينما تبين الرواية النمطية في الولايات المتحدة أن العنف الإسرائيلي، ربما المفرط في بعض الأحيان، إنما هو «نأر» للأعمال الوحشية العربية، تدعى إسرائيل، مثل الولايات المتحدة، حقوقاً أوسع كحق القيام بهجمات إرهابية لمنع الأعمال المحتملة ضدها، كما برز في التبرير لحرب لبنان من قبل عضو الكنيست الحمايمي أمنون روبنشتين والذي سبقت الإشارة إليه، فقد قامت القوات الإسرائيلية بما أطلقت عليه «نيراناً وقائية»، إذ بينما كانت تدفع بالدوريات في لبنان، قامت برش الأرض بنيران المدافع الآلية مما دفع قوات حفظ السلام الأيرلندية إلى غلق الطريق في احتجاج على ذلك . وعلى نحو معتاد، وصفت الهجمات الإسرائيلية في لبنان بأنها هجمات «وقائية وليست عقابية»، فعلى سبيل المثال، اجتثت من التاريخ، عملية قصف وضرب مخيمات اللاجئين الفلسطينيين والقرى المجاورة لها من قبل ثلاثين طائرة إسرائيلية في الثاني من ديسمبر عام ١٩٧٥م، تلك العملية التي كانت على ما يبدو نأراً من قرار مجلس الأمن لمناقشة مقترح سلام اعترضت عليه الولايات المتحدة باستخدام حق القيتو . وعلى نحو مماثل، وعندما قامت القوات البرمائية الإسرائيلية والقوات المحمولة جواً بمهاجمة طرابلس شمالي لبنان في فبراير ١٩٧٣م، أسقطت واحداً وثلاثين قتيلاً (أغلبهم من المدنيين) وفقاً لما ذكرته السلطات اللبنانية ودمرت الفصول المدرسية والمستوصفات، بررت إسرائيل الغارة بأنها كانت «بقصد إحباط عدد من الهجمات الإرهابية المخططة ضد الإسرائيليين فيما وراء البحار» .

يسير النمط بشكل مطرد، وتقبل المبررات بوصفها مبررات مشروعة. فهي تعكس مرة أخرى وضع إسرائيل كدولة عميلة ذات نفع، وكذلك الوضع الأدنى آدمية لضحاياها.

أسقطت إسرائيل طائرة مدنية ليبية فقدت في عاصفة رملية على مسافة دقيقتين طيران من القاهرة التي كانت متجهة إليها مما أسفر عن مقتل ١١٠ راكب^(١)، وأعربت الولايات المتحدة رسمياً عن تعاطفها مع عائلات القتلى، غير أن المتحدث الصحفي «رفض مناقشة المراسلين في مشاعر الإدارة حيال الحادثة». وجهت إسرائيل اللوم إلى الطيار الفرنسي، واتبعها في أداء الواجب صحيفة نيويورك تايمز، بامثال، وذلك بقبول الادعاء الإسرائيلي بأن الطيار كان يعلم بأنه قد تلقى الأوامر بالهبوط غير أنه بدلاً من ذلك لجأ إلى عمل مراوغ «مثير للشك بشكل كبير» - وهو نفس التبرير الذي قدمه الاتحاد السوفييتي لإسقاط الطائرة KAL 007 - مما جعل العمل الإسرائيلي «في أسوأ الأحوال . . عملاً قاسياً لا يمكن أن تبرره وحشية الأعمال العربية السابقة».

أبدت رئيسة الوزراء جولدا مائير رد الفعل الرسمي الإسرائيلي، إذ قالت بأن «حكومة إسرائيل تعرب عن عميق أسفها للخسائر في الأرواح البشرية، ونأسف أيضاً لعدم استجابة الطيار الليبي [كذا] للإنذارات التي وجهت إليه وفقاً للعرف الدولي»، بينما أردف شمعون بيريز قائلاً بأن «إسرائيل قد عملت طبقاً للقوانين الدولية». فقد ادعت إسرائيل كذباً بأن الطيار لم يحصل على رخصة قيادة طائرات نفاثة. ويرى أميرام كوهين في تحليل مفصل لرد الفعل الإسرائيلي أن «الصحافة قد منعت من نشر صور للطائرة المنكوبة وللقتلى والجرحى، كما لم يسمح للصحفيين بزيارة المستشفى في بئر سبع ومقابلة الناجين» كجزء من محاولة «حظر المعلومات». ورفضت الصحافة الإسرائيلية رد الفعل الدولي باعتباره إثباتاً آخر على «ازدهار روح العداء للسامية» في أوروبا، وكذلك في داخل الولايات المتحدة كان رد الفعل صدى لرد فعل الصحافة الإسرائيلية، إذ لم يتجرأ أحد على ذكر أو انتقاد الجريمة الإسرائيلية. ويرى كوهين أن الصحافة الإسرائيلية أصرت على أن «إسرائيل غير مستثولة»، وأن «اللوم يقع على الطيار [الفرنسي]». إنها «صحافة معبأة» ثابتة على تأييدها لعدالة

(١) مصريون وليبيون، وكان من بينهم مقدمة برامج التلفزيون الراحلة سلوى حجازي - المترجم.

الأعمال الإسرائيلية . وعقب الكثير من الاختلاقات ، أكدت إسرائيل بوجود «خطأ في التقدير» ، ووافقت على دفع تعويضات إلى أسر الضحايا «في مراعاة للاعتبارات الإنسانية» بينما أنكرت أى «ذنب» أو مسئولية إسرائيلية .

مرت الحادثة سريعاً داخل الولايات المتحدة مع تغاض عنها ، ومع قليل من النقد المدبرى الجريمة ، وبعد أربعة أيام من الحادثة ، قدمت رئيسة الوزراء جولدا مائير إلى الولايات المتحدة وأزعجتها الصحافة بعدة أسئلة محرجة ، ثم رجعت إلى ديارها وبجعبتها عطايا جديدة من الطائرات الحربية . اختلف رد الفعل قليلاً عندما أسقط الروس طائرة KAL 007 فى سبتمبر عام ١٩٨٣م ، غير أنه أصبح مجالاً للمقارنة عندما زعم يونيتا أصدقاء واشنطن ، أنهم قد أسقطوا طائرتين مدينتين فى وقت واحد . فليس من الصعب فهم معايير «الإرهاب الدولى» .

يعود سجل الإرهاب الإسرائيلى منذ النشأة الأولى للدولة - وفى الحقيقة ، يعود إلى ما قبل ذلك بفترة طويلة - ويحتوى على مذبحة مائتين وخمسين مدنياً وترحيل وحشى لسبعين ألفاً آخرين من اللد ورملة فى يوليو عام ١٩٤٨م ، ومذبحة مئات من الآخرين فى قرية الدويمة المستضعفة التى تقع بالقرب من الخليل ، وذلك فى أكتوبر عام ١٩٤٨م ، فى عملية أخرى من «عمليات تطهير الأرض» الكثيرة التى كانت تنفذ بينما كانت أجهزة الدعاية الدولية تصرح ، ولا زالت تصرح ، بأن العرب يفرون بأمر من قادتهم . وقتل عدة مئات من الفلسطينيين على أيدي قوات الدفاع الإسرائيلى بعد الاستيلاء على قطاع غزة عام ١٩٥٦م ، والمذابح فى قبية وكفر قصيم وسلسلة من القرى الأخرى المنتهكة ، وترحيل الآلاف من البدو من المناطق المدنية عقب حرب عام ١٩٤٨م ، وترحيل آلاف آخرين من شمال شرق سيناء فى أوائل السبعينيات ، وتدمير قراهم ليحل محلها الاستيطان اليهودى وهلم جرا . وتعتبر الضحايا ، طبقاً للتعريف ، «موالين لمنظمة التحرير الفلسطينية» ومن ثم فهم إرهابيون . وهكذا أصبح بمقدور محرر صحيفة هاآرتس المجل جيرشوم شوكن أن يكتب أن شارون «قد حقق لنفسه اسماً منذ أوائل الخمسينيات كمحارب متحجر القلب فى محاربه الموالين لمنظمة التحرير الفلسطينية» ، مشيراً إلى مذبحة المدنيين التى قام بها فى غزة وقبية عام ١٩٥٣م (قبل فترة طويلة من تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية) . والضحايا فى لبنان وفى أماكن

أخرى يعتبرون «إرهابيين» أيضاً، مثلما يجب أن يكون الوضع، وإلا كان من الممكن أن تتجنب قتلهم الدولة التي كرسست نفسها إلى «طهارة السلاح» والتي تتمسك «بالقانون السامى» طبقاً للصحافة الأمريكية «المالية للعرب».

حظى القادة الإرهابيون بالتكريم، فعندما تولى القائد الإرهابى الأمريكى المعاصر الرئاسة فى عام ١٩٨١ م، كان كلّ من رئيس وزراء إسرائيل ووزير الخارجية الإسرائيلى قائداً إرهابياً سمى السمعة، بينما كان يشغل أعلى مركز فى الوكالة اليهودية رجل قتل عشرات المدنيين كان قد احتجزهم تحت تهديد السلاح فى مسجد بمدينة لبنانية خلال عملية أخرى من عمليات تطهير الأرض عام ١٩٤٨ م، وما لبث أن تم العفو عنه، ورفعت كل آثار الجريمة من السجل، ومنح إجازة لممارسة العمل فى المحاماة على أساس «لا يوجد ما يستحق أن يُلام عليه».

كذلك الإرهاب ضد الأمريكين يمكن التغاضى عنه. فالهجمات الإرهابية الإسرائيلية ضد منشآت أمريكية (وكذلك أماكن عامة) فى مصر عام ١٩٥٤ م فى محاولة لإثارة القلاقل فى العلاقات المصرية الأمريكية وإجهاض مفاوضات السلام السرية التى كانت جارية آنذاك، قد تم تجاهلها مثلما حدث فى محاولة إغراق سفينة التجسس الأمريكية ليبرتى فى المياه الدولية عام ١٩٦٧ م من قبل القاذفات الإسرائيلية وزوارق الطوربيد التى أطلقت النيران أيضاً على قوارب النجاة التى لم تنزل إلى المياه، فى محاولة لضمان ألا يتمكن أحد من الهرب، ولقى أربعة وثلاثون من أفراد الطاقم حتفهم وأصيب مائة وواحد وسبعون فى أسوأ كارثة للبحرية الأمريكية لهذا القرن فى زمن السلم، إلا أنها تنحت جانباً بوصفها «خطأ» - هزلية واضحة - ولم يُعرف عنها شىء. وعلى نحو مماثل، لم يشر فى وسائل الإعلام إلى عمليات تعذيب الأمريكين التى قام بها الجيش الإسرائيلى فى الضفة الغربية وفى جنوب لبنان مع إلقاء الأضواء على الإنكارات الإسرائيلية وتجاهل تأكيد السفير الأمريكى فى إسرائيل على صحة الوقائع. وتخدم حقيقة أن الضحايا كانوا عربياً أمريكين بدون شك كمبرر، وفقاً للمعايير القائمة.

إن الشىء الذى يستوقفنا فى هذا السجل، الذى يحتوى على الكثير من الإرهاب ضد اليهود أيضاً منذ فترة طويلة، هو أنه لا يُلطخ بأى شكل ما سمعة إسرائيل داخل

الولايات المتحدة فيما يتعلق بالمعايير الأخلاقية التي لا يناظرها معايير في التاريخ . فكل عمل إرهابي ، إن كان أشير إليه ، لا يلبث أن ينحى جانباً أو يطوى طى النسيان ، أو يوصف بأنه انحراف مؤقت ، تبرره الطبيعة الشائنة للعدو الذي أجبر إسرائيل على الانحراف - ليت كان لمرة واحدة - عن سبيلها القويم .

بينما في خلال ذلك يوجه الشجب باستمرار لوسائل الإعلام نظراً «لازدواج معاييرها» فهي تتجاهل الجرائم العربية بينما تلصق بإسرائيل معايير بشعة . . ويطالعا المثقفون المجلدون برصانة أن «العديد من الشخصيات العامة في الغرب ، وكذلك عدداً من الحكومات الغربية» (بالطبع ، دون ذكر أسماء) قد شجعوا منظمة التحرير الفلسطينية على القضاء على إسرائيل . وعبر النطاق السياسي في الولايات المتحدة وبين الطبقات المتعلمة ذات الانضباط الرائع - مع الاستثناءات التي تجاوز حتى هامش التيار الرئيسي - تسود العقيدة بأن إرهاب الفلسطينيين وحلفائهم العرب وتشجيع الكرمين لهم وتمسكهم المستمر بقتل اليهود والقضاء على إسرائيل ، ورفضهم التفكير مطلقاً في تسوية سياسية ، كانت الأسباب الرئيسية للصراع العربي الإسرائيلي المستمر ، الذي تعد إسرائيل فيه ضحية مثيرة للشفقة . أما بالنسبة إلى الولايات المتحدة ، فهي تناضل بشجاعة ضد «الإرهاب» من أمريكا الوسطى إلى لبنان وما وراءها .

لم تُبدع الحركة الوطنية اليهودية والدولة التي أنشأتها في سجل أعمالهما الإرهابية مثل الحصانة التي يتمتعان بها في الرأي الغربي المتنور . فبالنسبة إلى الأمريكيين ، يكفي تذكر «أن أدولف هتلر اختار أن يثنى على الولايات المتحدة . . في حل مشكلة الأعراق الوطنية» ، مثلما يفعل بعض أولئك الذين يعيشون اليوم في أمريكا الوسطى وفقاً لشرعية هتلر بدعم من الولايات المتحدة . غير أن التعليق الحالي على «الإرهاب» في «الدول المتحضرة» يفوح بالنفاق ، ويمكن فحسب أن يكون موضع ازدراء بين الأناس المهذبين .
